جهود العلماء في بيان إعجاز القرآن العظيم

محمد بن موسى الشريف
الهيئة العالمية للإعجاز في القرآن الكريم والسنة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد اجتمعت جهود جليلة على مدار قرون طويلة لإظهار إعجاز القرآن العظيم، واشتغل بذلك علماء عظماء، ذوو نجابة ودقة فهم، وأصحاب علم وعمل، وبذلوا من أجل ذلك أوقاتهم، وأبرزوا من الإعجاز درراً فاخرة، وجاؤوا فيه بأبحاث جليلة، وأخرجوا دقائق لطيفة، لكن ما جاؤوا به بجميعه كان نقطـــة مـــن بحـــر، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1]، فما زال القرآن بحراً زخاراً، يفيض في كل وقت بعلوم لم تكن معلومة عند السابقين، ودقائق في الإعجاز يظهرها الله تعالى في كل حين، ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾[2]، فاللـــهجل جلالـــه أوجب على نفسه الشريفة المنيفة أن يُظهر للناس في كل وقت من القرآن دقائق من الإعجاز تسوقهم سوقاً إلى الإيمان، وتُعظم اليقين في نفوس المؤمنين، بهذا جرى أمره، واقتضت حكمته، سبحانه وتعالى.

هذا وإن كل الجهود التي بذلت في إظهار الإعجاز ما هي إلا غرفة من بحر، وقليل من كثير، وهذا فيـــه أعظم دليل على أن القرآن العظيم ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[3].

لكن لابد من بيان أن هذا العصر قد عظمت فيه جهود العلماء في بيان الإعجاز من جوانب متعـــددة، ونواح مختلفة، واجتمعت لذلك عقول اجتهدت، وسواعد عملت، وقلوب آمنت وخضعت، عاونها في ذلـــك وسائل التقنية الحديثة، فظهر من الإعجاز دقائق عجيبة، وسُلك في بيانه طرائق غريبة جليلة، حتى برز الإعجاز في حُلة قَشِيبة، وصار مؤثراً في العامة والخاصّة، والكبير والصغير، فلا يُدرى كم هُدي به من أقـــوام، وكـــم

(1) سورة الإسراء: الآية 85.
(2) سورة فصلت: الآية 53.
(3) سورة فصلت: الآية 42.

استقام به لسان وجَنان، وتلك قصة أخرى عجيبة، وأخبار جليلة مُنيفة، لا يصلح الإتيان بها هاهنا على جلالة أثرها، وعظم صنيعها في العقول والقلوب، فهي حقيقة بالإفراد في مصنف.

وهذا البحث أردت منه بيان هذه الجهود الماضية والحاضرة على أنني أعلم أنني لن أستوفي ولن أُقارب الاستيفاء لكن حسبي من ذلك التعريجُ والوقوف على جهد القوم.

وقد سلكت في هذا البحث المسلك التالي:

أولاً: أتيت على جهود العلماء الذين أستطيع أن أصفهم بأنهم هم المؤسسون الأوائل لعلوم الإعجاز، وكانت أبحاثهم هي اللبنة العظيمة التي قام عليها بنيان الإعجاز الشامخ، والركيزة الأولى التي ارتكز عليها أكثر مَن تكلم في الإعجاز بعد ذلك، وهم جماعة كثر لكن سآتي على ذكر أهمهم أثراً وأعظمهم عملاً، في ظني والله أعلم.

ثانياً: أتيت على جهود العلماء بعد تلك الطبقة إلى زماننا هذا، مقسماً لهم حَسَب علومهم، مجتهداً ما استطعت في إيفائهم حقهم، بعيداً عن المفاضلة بينهم إلا فيما اقتضاه البحث.

ثالثاً: أتيت على عمل أولئك العلماء الأعلام على وجه الإيجاز، مسترشداً مستضيئاً برأي من سبقني ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وربما خرجت برأي لي فيما درسته بنفسي، وبحثته طويلاً حتى وقفت عليه بتوفيق الله تعالى لي.

رابعاً: لم آت على مباحث لها صلة ما بهذا البحث، وذلك نحو:

ـــ إنكار بعض علماء العصر لبعض وجوه الإعجاز، وهذا له صلة بالموضوع من حيث إن إنكار بعض الوجوه هو إنكار لتلك الجهود التي بُذلت من أجل إظهار ذلك الوجه من الإعجاز، وأريد ببعض الوجوه الإعجاز العلمي الذي عظم ظهوره في هذا العصر وعظم في الوقت نفسه على بعض العلماء قبول كثير منه، واحسرتاه ووأسفاه، وإنما لم آت بهذا المبحث لأني أرى –والله أعلم– أن هذا الأمر مفتقر إلى حسم في بحث منفصل تجتمع عليه جهود العلماء ليخرجوا بقول فصل فيه.

ولم آت بمبحث الإعجاز العددي؛ وذلك لأن قواعده لم تستقر بعد، وفيه خلاف طويل بين علماء معتبرين فلم أُرد الخوض في هذا الخلاف، والفرق بينه وبين الإعجاز العلمي –وقد وقع في كليهما الخلاف– أني أرى أن الإعجاز العلمي قد استقرت قواعده، واتفق العلماء المعتبرون على قبوله، وارتضاه الكافة ولم يشذ إلا القليل، على العكس من الإعجاز العددي، ولذلك أتيت بالأول ولم آت بالآخر، والله أعلم.[1]

خامساً: وقد سقت كل ذلك على وجه من الإيجاز لابد منه في مبحث كبير كهذا متشعب الجوانب، وإلا لأصبح كتاباً كبيراً، والله الموفق.

---

(1) قُدم هذا البحث في مؤتمر "جهود العلماء في خدمة القرآن الكريم" الذي أقيم في مدينة فاس في المغرب الأقصى في 11–13 من شهر جمادى الأولى سنة 1432 الموافق 15–2011/4/17.

هذا والله أعلم وأحكم، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

من المعلوم أن العلوم تنشأ وليدة، ثم تسير بخطى وئيدة، ثم يشتد عودها وتقوم على سوقها وتستوي قوية قويمة على قواعد مستقيمة، ولم يشذ علم الإعجاز عن هذا باعتبار البحث فيه والتنقيب عنه والإشارة إليه، وإلا فهو قد وُلد كاملاً باعتبار ثبوت نصوصه.

ولابد من القول هاهنا أن كلمة إعجاز -بمعناها الاصطلاحي- لم ترد في كتاب الله -تعالى- ولا سنة رسول الله ﷺ، إنما الذي جاء فيهما كلمة آية وبرهان وسلطان وغير ذلك مما هو أكمل وأدلّ على المراد من كلمة الإعجاز.

وكان السلف من صحابة وتابعين ومن تبعهم من أهل القرون المفضلة يسمون ما جاءت به الأنبياء دلالةً على صدقهم: آياتٍ وبراهين ودلائل، وذلك اقتفاء لطريقة القرآن في تسميتها كذلك، ثم نشأ مصطلح المعجزة وفشا استعماله بين الناس.

فهل هذا المصطلح: "المعجزة" كاف للدلالة على آيات الأنبياء؟

يرى عدد من الأئمة أنه غير كاف، والأولى استعمال المصطلحات القرآنية كالآية والبرهان، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لأن الله -تعالى- سمّاها كذلك فلم نتجاوز التسمية الإلهية لها وهي خير وبركة؟

ثانياً: لفظ الآية والبرهان وما يماثلهما من التسميات القرآنية مطابق لمسماه مطّرد لا ينتقض[1]، والآية مستلزمة لصدق النبي فلا يُتصور أن توجد مع انتفاء صدق من أخبر أن الله أرسله[2] بخلاف مدعي المعجزة كذباً فإن ما يأتي به شاهد على كذبه.

ثالثاً: "المعجزة لا تستلزم ثبوت النبوة إلا بشرط، أما الآيات فهي شهادة بالنبوة وتصديق للمخبر، فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها، وأن صاحب الآيات قد نبأه الله وأوحى إليه كما أوحى إلى غيره من الأنبياء، وتستلزم أيضاً صدق الإخبار بأنه نبي، فهو إذا قال: إني نبي، كان صادقاً، وكذلك كل من أخبر بنبوته فإنه يكون صادقاً".[3]

---

(1) "النبوات": 289.

(2) المصدر السابق: 287.

(3) المصدر السابق: 299.

"ولهذا لم يسمها الله في كتابه إلا آياتٍ وبراهين، فإن ذلك اسم يدل على مقصودها، ويختص بها لا يقع على غيرها، لم يسمها معجزة ولا خرق عادة وإن كان ذلك من بعض صفاتها؛ فهي لا تكون آية وبرهاناً حتى تكون قد خرقت العادة وعَجَزَ الناسُ عن الإتيان بمثلها، لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها، وهو من لوازمها، لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعمَّ منه، وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة هو الحد المطابق لها طرداً وعكساً".[(1)]

رابعاً: المعجزة قد تطلق على غير آيات الأنبياء:

كان كثير من أهل الكلام لا يسمي الخارق معجزةً إلا ما كان للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فقط، ومن أبثت للأولياء خوارق عادات -وهم الجمهور- سماها كرامات، والسلف كانوا يسمون ما وقع للأنبياء وما وقع للأولياء من خوارق معجزةً كالإمام أحمد وغيره، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه به[(2)].

ظهور مصطلح الإعجاز والمعجزة:

و لم ترد كلمة الإعجاز في القرن الأول ولا في القرن الثاني، والله أعلم، إنما ظهرت أول مرة في أوائل القرن الثالث للهجري على لسان المعتزلة غالباً وعلى لسان بعض أهل السنة مما سيأتي بيانه قريباً، إن شاء الله تعالى.

معنى مصطلح "إعجاز القرآن":

معنى إعجاز القرآن منتزعاً من التعاريف المتعددة للمعجزة والإعجاز:

"إثبات القرآن عجزَ الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: إعجاز القرآن خَلْقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به"[(3)].

المبحث الأول: جهود العلماء الذين أسسوا علوم الإعجاز أو كانت لهم فيه إشارات نافعة

قد قام علم الإعجاز في القرنين الثالث والرابع وأوائل الخامس على أيدي علماء عظماء، كان لبعضهم أكبر الأثر في تأسيس القواعد ووضع الضوابط لهذا العلم، وكان مَن بعدهم -في الجملة- عالة عليهم في أكثر ما أسسوه، وفي معظم ما ضبطوه وقعّدوه.

ومن الواضح أيضاً أن كل أولئك العلماء كانوا يمتلكون ناصية اللغة، بل إن أغلبهم كانوا من أئمة اللغة والأدب لا يكادون يعرفون بغير ذلك.

---

(1) "النبوات": 310-311.

(2) شرح الزرقاني على المواهب: 81/5، وكأن القسطلاني نقله عن "الجواب الصحيح": 419/5 لشدة تقارب ألفاظ الكتابين، والله أعلم.

(3) "مناهل العرفان": 227/2.

سآتي على هؤلاء العلماء الذين كان لهم سهم في رعاية الوليد الناشيء، والقيام على العظيم الـــدارج، وسأذكرهم بإيجاز لكن سآتي على المشهور مما كتبوه والمهم مما صنفوه حتى صار أساساً لمن جاء بعدهم ونسج على مواهم- بشيء من التفصيل، وقبل سوق أخبارهم لابد من بيان جهد لعالم أسس مدرسة في علم التفسير، كانت عوناً لكل من تكلم في الإعجاز اللغوي بعد ذلك، ألا وهو:

عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما[1]:

وهو أعلم الصحابة ﷺ بالقرآن، وذلك بدعاء النبي ﷺ له: "اللهم علمه التأويل، وفقه في الـــدين"[2]، ولاعتراف أعلامهم بهذا له، ولذكائه وصفاء ذهنه، ولِما رُزق من طول العمر الباعث على التضلع من العلوم.

وقد كان لابن عباس جهود كبيرة في تأسيس النواة الأولى لعلوم الإعجاز، وهذا على النحو التالي:

1. تصديه لتفسير كثير من الكلمات القرآنية، كما هو مبثوث في كتب التفسير بالمأثور، وهـــذا التفسير كان له أثر كبير في تقعيد الإعجاز اللغوي بأنواعه المتعددة فيما بعد.

2. تكوينه مجموعات من طلابه كان لهم أكبر الأثر في حمل راية التفسير من بعده مثل مجاهـــد[3] وقتادة[4]، وقد تصدوا لتفسير القرآن بعد ابن عباس -رضي الله عنهما- وأُثر عنهم كلام في تفســـير آيـــات الإعجاز وغيرها.

ولا يعني هذا أن ابن عباس -رضي الله عنهما- كان له أثر مباشر في علوم الإعجاز، إنما كان ممهداً له، بما قام به من تفسير واسع لمفردات مفتقرة إلى إيضاح وشواهد من كلام العرب[5]، ولِما ترك من طلاب نجباء من بعده كونوا مدرسة مهمة في التفسير، والله أعلم.

وقد كان الحديث المباشر عن الإعجاز في القرنين الأول والثاني تأريخاً محضاً لموقف كفار العـــرب مـــن القرآن وإعجازه، أو تفسيراً يسيراً لبعض آيات الإعجاز في كتاب الله تعالى.

أما القرن الثالث فقد برز فيه علماء عظام، على ألسنتهم دار الحديث عن الإعجاز، وبعضـــهم صـــرّح بكلمة الإعجاز، فمن هؤلاء:

1. **الفرّاء**[6]:

---

(1) الهاشمي، أعلم الصحابة ﷺ بالقرآن، توفي في الطائف سنة 68 ﷺ، انظر ترجمته في "سير أعلام النبلاء": 3/331-359.

(2) أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده، وغيره، والحديث صحيح.

(3) مجاهد بن جَبْر المكي، أبو الحجاج، المخزومي بالولاء. ثقة. إمام في التفسير وفي العلم. مات سنة إحدى ومائة وله ثلاث وثمانون سنة، رحمه الله تعالى. انظر "التقريب": 520.

(4) هو الشيخ قَتادة بن دِعامة بن قتادة، أبو الخطاب السَّدوسي، البصري الضرير الأكمه -وهو من وُلد أعمى- حافظ عصره، قدوة المفســـرين والمحدثين، ولد سنة 60. وكان من أوعية العلم. وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع، لأنه مدلس معروف بذلك، وكان يُرمى بالقدر، ومع هذا ما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه. توفي سنة ثماني عشرة ومائة. انظر "سير أعلام النبلاء": 5/269-283.

(5) لعلّ في إجاباته على نافع بن الأزرق الخارجي في مسائله المشهورة دليلاً على هذا، انظر كتاب "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية لغوية وبيانية" للدكتورة عائشة عبد ا لرحمن "بنت الشاطئ".

(6) العلامة صاحب التصانيف، أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد ا لله الأسدي بالولاء، الكوفي النحويّ. قيل عُرف بـــ "الفرّاء" لأنه كان يفري الكلام (أي يُصلحه ويأتي بالعجيب فيه)، كان بحراً في اللغة والنحو، عارفاً بالفقه والطب وأيام العرب والشعر والنجوم.

وكتابه الذي اشتهر به وضمنه إشارات في الإعجاز اللغوي هو "معاني القرآن"، وهو مطبوع متداول.

2. أبو عبيدة[1]:

وكتابه هو "مجاز القرآن"، وهو أيضاً مطبوع متداول.

وهذان من علماء اللغة الكبار الذين كان لجهودهم أثر جليل في تأسيس الإعجاز اللغوي فيما بعد، وكتاب كل منهما كان عَلَماً في بابه، وأساساً في بنيان الإعجاز اللغوي، وفي ذلك قال الأستاذ الدكتور فضل عباس[2]:

"في هذين الكتابين نجد البذور الأولى التي تحدثت عن أسلوب القرآن ونظمه... فهناك حديث عن التشبيه، والكناية والتأكيد إلى غير ذلك مما كان الأساس الذي بنى عليه العلماء اللاحقون كثيراً من قضايا الإعجاز، ومن الخير أن نقرر ها هنا أن قضية الإعجاز لم تقرر تقريراً مباشراً في هذين الكتابين، بل كان فيهما إشارات ولمحات لم تذكر فيها كلمة الإعجاز"[3].

3. النظّام[4]:

وهو من كبار المعتزلة، وقد كان له كلام في تقرير الإعجاز قُبل بعضه ورُدّ عليه بعضه الآخر وهو قوله بالصَرفة، أي أن الله تعالى صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن و لم يكونوا عاجزين عن الإتيان بمثله لولا أن الله صرفهم، وهذا القول مُذهب للإعجاز فلا جرم أن خالفه سائر المعتزلة الكبار كالجاحظ[5] والقاضي عبد الجبار[6]، وهو قول ساقط شاذ وإن وافقه فيه بعض الكبار[7].

4. الجاحظ:

---

(1) العلامة البحر أبو عبيدة مَعْمر بن المثنى، التيمي بالولاء، البصري النحوي. ولد سنة 110، وكان متوسعاً في علم اللسان وأيام الناس حتى قيل عنه بأنه أعلم مَن في الأرض فيهما، وكان شعوبياً يبغض العرب، ويرى رأي الخوارج. توفي سنة 209 وقد قارب مائة عام، رحمه الله تعالى. انظر "سير أعلام النبلاء": 445/9-447.

(2) هو من الأردن، ومن كبار علماء القرآن في هذا العصر، وكان ضريراً، توفي في أوائل السنة الهجرية 2011/1432، رحمه الله تعالى.

(3) "إعجاز القرآن الكريم": 36.

(4) أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام البصري المعتزلي المتكلم. تكلم في القدر، وانفرد بمسائل مخزية، وله كتب كثيرة. كفره جماعة. مات سنة سنة بضع وعشرين ومائتين. انظر "سير أعلام النبلاء": 541/10.

هذا و لم يبين الإمام الذهبي مَن كفره، وقال صاحب "الفَرق بين الفِرق": 114، إن "أكثر المعتزلة متقفون على تفكير النظام" وأخذ في ذكر من كفره كالجُبّائي وأبي الهذيل.

و لم أجد في كتاب "فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة" إلا ثناءً بالغاً عليه وعلى ذكائه مع أن الكتاب مجموع من أقوال ثلاثةٍ من أئمة الاعتزال، انظر "طبقات المعتزلة": 70-71، 264-265.

بل إن شيخ المعتزلة البغداديين أبا الحسين الخياط قد دافع عن النظام وأنكر ما نسب إليه من القول بالصرفة لكنه لم يأت بدليل يؤيد ما ذهب إليه من نفي هذا القول عن النظّام، انظر "الانتصار": 28-29.

(5) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصريّ المعتزليّ، العلامة المتبحر ذو الفنون، صاحب التصانيف. كان ماجناً، قليل الدين، له نوادر، وهو من بحور العلم. توفي سنة خمس وخمسين ومائتين بعد أن عُمِّر طويلاً. انظر "سير أعلام النبلاء": 526/11-530.

(6) هو الشيخ العلامة المتكلم أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الأسد آباذي المعتزلي، صاحب التصانيف. كان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع والمعتزلة في الأصول، وله في ذلك مصنفات. ولي قضاء القضاة بالريّ ومات بها سنة 415 من أبناء التسعين. انظر "سير أعلام النبلاء": 244/17-245.

(7) "إعجاز القرآن الكريم": 37-38.

وهو من كبار المعتزلة، وقد عده كثير جداً من أدباء العربية قديماً وحديثاً أكبر الأدباء وأعظم البلغاء وأنه لم يظهر مثله في أدبه وسعة علمه في اللغة من القرن الثالث الهجري إلى يوم الناس هذا، وقد قال الخياط المعتزلي(1):

"لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ، ولا يُعرف كتابٌ في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد ﷺ وعلى نبوته غير كتاب الجاحظ"(2).

وقد كان له كلام جليل في الإعجاز "بل لا يكاد يخلو كتاب من كتب الجاحظ على كثرتها من حديث عن القرآن الكريم، فتارة يحدثنا عن صحة أخباره، وتارة عن جودة سبكه وبديع نظمه، وثالثة عن قوة حججه، وأخرى عن دحض الشبهات التي يوجهها الملاحدة والحاقدون... ولقد وضع الجاحظ بحق بذوراً لنظرية الإعجاز التي تطورت فيما بعد، وإن كانت هذه البذور جاءت موزعة في مواضع من كتبه ومؤلفاته"(3).

والجاحظ ممن صرح بلفظ المعجزة والإعجاز في أكثرَ مِن كتاب له(4).

5. ابن قُتيبة(5):

وهو إمام من أئمة أهل السنة، وقد ألف كتابين مهمين يُعدان ممهديْن لعلم الإعجاز اللغوي وهما: "تأويل مشكل القرآن"، و"غريب القرآن"، لكن ليس له كتاب خاص في إعجاز القرآن إنما هي إشارات مبثوثة في كتابيه السالفي الذكر.

6. الرُماني(6):

وهو من أئمة الاعتزال، وقد ألف رسالة موجزة(7) في إعجاز القرآن مطبوعة متداولة، لكنها -على وجازتها- من أهم ما كُتب في هذا الباب، بل إن "ما ذكره من أقسام البلاغة كان الأساس الذي اعتمد عليه علماء البلاغة فيما بعد"(8)، واسم هذه الرسالة "النكت في إعجاز القرآن (9)" وهي أولى المصنفات التي وصلتنا

---

(1) هو أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان شيخ المعتزلة البغداديين، له الذكاء المفرط والتصانيف المهذبة، وكان قد طلب الحديث. له جلالة عجيبة عند المعتزلة وقد صنف عدة كتب. لا يعرف له تاريخ وفاة، وقد صنف في الطبقة الثامنة من المعتزلة وقد صنف عدة كتب. لا يعرف له تاريخ وفاة، وقد صُنف في الطبقة الثامنة من المعتزلة وهي في حدود أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع. انظر ترجمته في "سير أعلام النبلاء".

(2) "الانتصار": 111.

(3) كالرُمّاني المعتزلي، وسيأتي الحديث عنه قريباً إن شاء الله تعالى.

(4) انظر رسالته "حجج النبوة" في "مجموع رسائل الجاحظ" للأستاذ عبد السلام هارون: 283/3.

(5) هو العلامة الكبير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبة الدِينَوَريّ الكاتب. نزل بغداد، وصنف وجمع، وبَعُد صِيته وكان ثقة ديناً فاضلاً. وكان رأساً في علم اللسان العربيّ والأخبار وأيام الناس. مات ببغداد فجأة سنة 276 رحمه الله. انظر "سير أعلام النبلاء": 296/13-302، و"الأعلام": 137/4.

(6) هو الشيخ أبو الحسن علي بن عيسى الرمانيّ. علامة من أوعية العلم -على بدعته- صنف في التفسير، واللغة والنحو، والكلام والاعتزال، وله وله نحو من مائة مصنف. وكان يتشيّع. مات ببغداد سنة 384 عن 88 سنة، رحمه الله تعالى، انظر "سير أعلام النبلاء": 533/16-534.

(7) كان السبب في وجازتها أن سائلاً مجهولاً طلب منه ذكر أوجه الإعجاز دون تطويل بذكر الأدلة فاستجاب له، انظر "النكت": 75.

(8) "إعجاز القرآن الكريم": 43.

(9) الكتاب مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن هي "بيان إعجاز القرآن" للإمام الخطابيّ، و"الرسالة الشافية" للإمام الجرجاني، بالإضافة بالإضافة إلى كتاب "النكت" الذي يحتل الصفحات: 75-113 من المجموع.

وصلتنا كاملة في هذا الباب، وهي "أول دراسة فنية ذات وحدة متماسكة فتحت الباب بعد ذلك لدراسات أوسعَ وأشمل وأعمق"[1].

وقد استفاد من مباحث هذه الرسالة عددٌ من المصنفين بعد الرماني كالباقلاني[2] الذي نقل قسماً كبيراً منها في كتابه: "إعجاز القرآن"[3].

وقد قسم المصنف رسالته هذه إلى مقدمة وأحدَ عشر باباً:

أما المقدمة فقد اختصرها غاية الاختصار، وسرد فيها سبعة أوجه للإعجاز منها البلاغة التي خصها بعشرة أبواب من الرسالة، وطَرَق أوجه الإعجاز الستة الباقية طرقاً خفيفاً في الباب الحادي عشر.

وكان للمباحث البلاغية في رسالته "أكبر الأثر في تاريخ البحوث البلاغية على مر الأزمان، كما كانت مصدراً يستقي منه كل العلماء الذين أتوا بعده، وعُنُوا بالبلاغة العربية عامة وبلاغات القرآن خاصة"[4].

وجوه الإعجاز عند الشيخ الرمّاني:

ذكر الرماني في رسالته الموجزة سبعة أوجه للإعجاز، هي:

1) ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدّة الحاجة.
2) التحدي للكافّة.
3) الصَّرفة.
4) البلاغة.
5) الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.
6) نقض العادة.
7) قياسه بكل معجزة.

أما الوجه الأول:

وهو ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة فالمقصود منه عجز العرب عن المعارضة[5]، ولا يصح -في تقديري- أن يُجعل العجز عن المعارضة وجهاً من وجوه الإعجاز؛ لما فيه من الدَّوْر[6]؛ ولأن العجز العجز دليل الإعجاز، وليس هو الإعجاز.

---

(1) "بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ": 112.

(2) هو الشيخ الإمام العلامة أوحد المتكلمين القاضي أبو بكر محمد بن الطِّيب بن محمد البصري ثم البغدادي، ابن الباقِلاني، صاحب التصانيف. كان يضرب المثل بفهمه وذكائه. وكان ثقة إماماً بارعاً. غالب قواعده على السنة. صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرّامية، وانتصر لطريقة الأشعري. مات سنة ثلاث وأربع مائة، وكانت جنازته مشهودة. انظر "سير أعلام النبلاء": 17/190-193.

(3) انظر "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن": 164-166.

(4) "المباحث البلاغية": 113-114.

(5) وإنما قلت ذلك لئلا يتداخل هذا الوجه مع الوجه الثالث وهو "الصَّرفة".

(6) الدَّوْر هو "توقف الشيء على ما يتوقف عليه... كما يتوقف (أ على ب)، و (ب على ج)، و (ج على أ). "التعريفات": 140.

والوجه الثاني:

وهو التحدي للكافة، وهو ليس وجهاً من أوجه الإعجاز بقدر ما هو داعية إلى الإعجاز؛ إذ إنه –أي التحدي– هو السبيل الذي أغرى الله به البشر كافّة لأن يعارضوا القرآن فانقطعوا و لم يستطيعوا.

الوجه الثالث:

الصَّرفة، وقد سبق ذكرها وردها قريباً.

الوجه الرابع:

البلاغة، فقد قسمها إلى عشرة أقسام هي:

1) الإيجاز[1].

2) التشبيه[2].

3) الاستعارة[3].

4) التلاؤم، ويعني بها عدم تنافر الحروف[4].

5) الفواصل[5].

6) التجانس، ويعني بها المشاكلة[6] والازدواج[7].

---

(1) الإيجاز: هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها، وافيةٍ بالغرض المقصود مع الإبانة والإفصاح، كقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها، وللإيجاز أقسام، وانظر في ذلك: "جواهر البلاغة": 222 وما بعدها، وانظر "النكت": 76–80.

وإنما عدلت عن تعريفات المصنف إلى تعريفات المتأخرين لأنها أقعد وأدلّ على المراد، وأما إتياني بالتعاريف من كتاب "جواهر البلاغة" دون "المفتاح" وشروحه لأن ما في "الجواهر" أوضح مما في غيره وأسهل تناولاً.

(2) التشبيه هو: عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قُصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة، لغرض يقصده المتكلم": "جواهر البلاغة": 247. وانظر "النكت": 80–85.

(3) الاستعارة هي: "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، والاستعارة ليست إلا تشبيهاً مختصراً ولكنها أبلغ منه، كقولك رأيت أسداً في المدرسة، فأصل هذه الاستعارة: رأيت رجلاً شجاعاً كالأسد في المدرسة فحذفت المشبه وحذفت الأداة وحذفت وجه التشبيه وألحقته بقرينة المدرسة لتدل على أنك تريد بالأسد شجاعاً": "جواهر البلاغة": 303–304. وانظر "النكت": 85–94.

(4) التلاؤم: عدم تنافر الحروف، والتنافر وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان بسبب كون حروف الكلمة متقاربة متقاربة المخارج، وينقسم إلى قسمين، وانظر كل ذلك في "جواهر البلاغة": 8، وانظر "النكت": 94–97.

(5) الفاصلة: كلمة آخر الآية، "البرهان": 53/1. وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر –جل كتاب الله عز وجل– واحدتها فاصلة: "لسان العرب": ف ص ل. وانظر "النكت": 97–99.

(6) المشاكلة هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ... نحو قوله تعالى: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي أهملهم، ذكر الإهمال هنا بلفظ النسيان لوقوعه في صحبته: "جواهر البلاغة": 375، وقال ابن كثير: أي عاملهم معاملة مَن نسيهم": "تفسير القرآن العظيم": 113/4.

(7) الازدواج هو: تجانس اللفظين المجاورين نحو: من جدّ وجد. : "جواهر البلاغة": 404.

ومثل له الرماني بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ ، وانظر مقصود الرماني من هذا القسم في "النكت": 99–100.

7) التصريف:

ويعني به تصريف المعنى في المعاني المختلفة كتصريف الملك في معاني الصفات فصُرف في معنى مالـــك، وملك، وذي الملكوت، والمليك، وفي معنى التمليك...، وضرب مثلا على هذا قصة موسى -عليـــه الصـــلاة والسلام- حيث ذكرت في عدة سور لوجوه من الحكمة: منها التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلـــى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة...[1].

8) التضمين:

وتضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له[2] باسم أو صفة... وكل آية فلم تخل من تضمين لم يذكر باسم أو صفة، فمن ذلك ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قد تضمن التعليم لاستفتاح الأمور على التـــبرك والتعظيم لله بذكره، وأنه أدب من آداب الدين، وشعـــار للمسلمين ..."[3].

9) المبالغة[4].

10) البيان:

ويعني به علم البيان المعروف الذي هو "أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطـــرق يختلـــف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى"، وله أقسام معروفة.[5]

لكن الكلام على البيان في كتابه جاء على هيئة مباحثَ أولية، وأمثلة لم تكتمل أقسامها بعد[6]، وذلك لتقدم زمان الرماني، وعدم اكتمال تقاسيم ذلك العلم آنذاك.

هذا وقد جاءت مباحثه البلاغية في هذه الرسالة قويةً، وفي بعضها جِدّةٌ وابتكار، ولكن التقسيم الـــذي استقر بعد ذلك لعلم البلاغة[7] لم يكن واضحاً في رسالته؛ حيث إنه قد حصر البلاغة في الوجوه العشرة الـــتي ذكرها و لم يزد عليها، إما لأنه لم يطلع على ما سواها، أو أنه ذكر ما يرى أنه الأهم، والله أعلم[8].

الوجه الخامس: الإخبار عن الغيوب:

ووجه الإعجاز فيها جزئيّ لا كليّ، بمعنى أنه ليس في كل آية من آيات القرآن العظيم[1].

---

(1) انظر "النكت": 101-102.

(2) أي من غير ذكر لذلك المعنى المضمّن، وسيوضح كلامه بمثال.

(3) المصدر السابق: 102-104، وهو غير التضمين المشهور في علم البلاغة، وهو غير التضمين في الشعر والنثر، وهو أن يضمن الشاعر أو الناثر كلامه شيئاً من مشهور شعر الغير، وانظر "جواهر البلاغة": 416.

(4) هي أن يدعي المتكلم لوصفٍ بلوغَه في الشدة أو الضعف حداً مستبعداً أو مستحيلاً" ولها أنواع، وانظر "جواهر البلاغة": 380.

(5) انظر "جواهر البلاغة": 244 وما بعدها من أبحاث التشبيه، والمجاز، والكناية.

(6) "النكت": 106-109.

(7) وهي البيان والمعاني والبديع.

(8) انظر -في هذا الموضوع بالتفصيل- كتاب الدكتور محمد محمد أبو موسى: "الإعجاز البلاغي": 85-153، وكتاب الدكتور أحمد العمري: "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني": 115-149.

وانظر فصل "تعليقات من جاءوا بعد الرماني على آرائه البلاغية واقتباسهم من تلك الآراء" في كتاب "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن": ص 164 وما بعدها.

الوجه السادس: نقض العادة:

ويعني الرماني به أن القرآن قد أتى نظمه على طريقة مفردة خارجةٍ عن العادة، لها منـــزلة في الحســـن تفوق كل منـــزلة[2].

وهذا الوجه هو ما يعرف بـــ "الإعجاز النظمي"، وقد أفرده الشيخ عن أوجه البلاغة التي تكلم عليهـــا في كتابه، وعادة المتكلمين في بلاغة القرآن بعده –كالباقلاني[3]– أن يجعلوا هذا الوجهَ مع البلاغة فيصير وجهاً واحداً، ولكن إفراده –كما صنع الرمانيُّ– أمرٌ حسن لا يعاب عليه بل هو يبرز هذا الوجهَ ويظهره، وهذا عينُ صنيع عبد القاهر الجرجاني في كتاب "دلائل الإعجاز"؛ إذ تفنن في الكلام على نظم القرآن وقعّد له قواعد.

الوجه السابع: قياسه بكل معجزة:

ويوضح مراده بقوله:

"وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة؛ إذ كان سبيل فلق البحر وقلبِ العصا حيّةً وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز، إذا[4] خرج عن العـــادة وقعـــد الخلـــق فيـــه عـــن المعارضة"[5].

وقد فسر كلامه هذا بأنه "ما دام الناس قد عجزوا عن أن يأتوا بما أتى موسى من قلب العصا حية وفلق البحر فإنهم قد عجزوا أيضاً عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ بعد أن تُحُدوا إليه، فكـــان السبيل واحداً بالنسبة لما جاء به موسى وما جاء به محمد وهو العجز؛ لأن كليهما قد أتى بما هو خارج عـــن العادة"[6].

وهذا الوجه –على هذا التفسير– ليس وجهاً مستقلاً بالإعجاز بل هو المعجزة ذاتها التي يُبحث لها عـــن وجه إعجازها، فكلامه منصبٌ على قياس المعجزة القرآنية بكل معجزة سابقة في أن القرآن نقض عادة البشـــر وعجزوا عن معارضته فهو المعجزة ذاتها، فلا يصح أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، والله أعلم.

تلك كانت أوجهَ الإعجاز التي أتى بها في رسالته، ويمكن اختصارها في ثلاثة أوجه اشتهر القول فيها بأنها من أوجه الإعجاز أما عداها فلا، وهذه الأوجه هي:

1) الإعجاز البلاغي والنظمي.
2) الإعجاز بأخبار الغيب.

---

(1) انظر تفصيل القول في هذه المسألة في هذا البحث: المبحث الرابع: جهود المفسرين: مطلب تفصيل القول في الإعجاز بأخبار الغيوب ص: 45 .

(2) "النكت في إعجاز القرآن": 110.

(3) انظر "إعجاز القرآن" للباقلاني: ص 35 وما بعدها.

(4) لعلها "إذ" فالمعنى يستقيم بها نوع استقامة.

(5) "النكت في إعجاز القرآن": 111.

(6) "تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية": 271–272. وانظر كذلك "الإعجاز البلاغي": 86.

3) الإعجاز بـــ "الصّرفة".

ويلاحظ على رسالته ما يلي:

1) كان طَرْقه لأوجه الإعجاز طرقاً خفيفاً عدا الوجه البلاغيّ، مما يدل على تبحره في جانب البلاغة واهتمامِه بها، وكأن هذا الوجه هو أُسُّ الإعجاز القرآني عنده.

2) أسلوبه في هذه الرسالة -على وجازتها- يجمع بين السلاسة والقوة، وعبارته متينة سليمة ممتعـــة، وقد فصّل عدد من النقاد رسالته تفصيلاً دللوا فيه على ما في أسلوبه من جمال، وما في معانيـــه مـــن جِـــدّة وابتكار[1].

3) جرى في تقسيمه رسالتَه على طريقة كثير من القدماء؛ إذ لم يقدم بمقدمة تظهـــر معهـــا أهميـــة الموضوع، ولم يذكر من طَرَقه قبله، كما أن الرسالة قد خُتمت بدون تصريح أو تلويح بالخاتمـــة[2]، فإمـــا أن يكون الكلام قد انتهى ولم يُختم بما يدل على ذلك كما هي طريقة بعض المصنفين القدامى الذين يتركون ختم الكتاب للطلاب الرواةِ عنهم، أو أن هذه الرسالة كانت ضمن مجموع له فشرع في نهايتها برسالة أخرى فلـــم ير ضرورةً لذكر خاتمةٍ لرسالته هذه، أو أن الرسالة فيها بعض النقص كما ذهب إلى ذلـــك أحـــد الدراســـين لها[3]، وإن لم يشتهر هذا النقص بين الباحثين، والله أعلم.

4) لم يَرِد في رسالته أيُّ حديث أو أثرٍ يدعم به ما ذكره من مباحثَ، والمصنف جرى على طريقـــة المعتزلة الذين يقلُّ عندهم الاهتمام بالأحاديث والآثار، ولعل لوجازة الرسالة مدخلاً في هذا، والله أعلم.

5) كانت رسالته موجزةً تحتاج في كثير من جوانبها إلى زيادة بسط وشرح حتى فيما أطنب فيه منها وهو الإعجاز البلاغي.

ولما كانت رسالته من أوائل الرسائل في الإعجاز كان من شأنها الإيجاز؛ إذ العلوم والفنون تنشأ مجملـــةً أو قليلة المباحث، ثم تنمو على يد العلماء اللاحقين ويعظم شأنها.

هذا ما تيسر من الكلام على الإعجاز في كتاب الإمام الرمانيّ، وقد أطلت النَفَس فيه شيئاً ما لأنه يُعَـــدّ كالأساس لِما كتب بعده وصُنف.

7. الخطابي[4]:

---

(1) انظر -مثلاً- "الإعجاز القرآني: وجوهه وأسراره": 79-99.

(2) فيما عدا ما ذكر في هامش ص 113 وهو -فيما يظهر- من صنع بعض تلاميذه، والله أعلم.

(3) هو الدكتور محمد أبو موسى في كتابه "الإعجاز البلاغي": 85، حيث يدلل على نقص في الرسالة واضطراب وتصحيف، ولكنه لم يذكر أن آخرها مبتور، ولعله كذلك، والله أعلم.

(4) هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ اللغويّ أبو سليمان حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم البُسْتيّ الخطابيّ، صاحب التصانيف. ولد سنة بضـــع عشـــرة وثلاثمائة. رحل في الحديث وقراءة العلوم، وفي شيوخه كثرة. توفي ببُست سنة 388، رحمه الله تعالى. انظر "سير أعلام النبلاء": 23/17-28.

هو إمام من أئمة أهل السنة، وألف رسالة في الإعجاز بعنوان "بيان إعجاز القرآن[1]" وهي مطبوعة متداولة، وجاء في رسالته هذه بأوجه من الإعجاز مرتبة كان في بعضها غير مسبوق؛ مثل تأسيس القول بالإعجاز النفسي أو التأثيري في القلوب والعقول.

ورسالته هذه كانت أساساً لما كتب في الإعجاز فيما بعد[2]، وتشبه في أهميتها وتفردها وسياقتها إلى حد بعيد رسالة الرماني آنفة الذكر، وإليكم وصفاً موجزاً لهذه الرسالة المهمة:

الكتاب أول مصنف في الإعجاز يصنفه إمام من أهل السنة -فيما أعلم- والكتاب رسالة مختصرة أوجزها مصنفها وذكر فيها عدداً من أوجه الإعجاز ارتضى منها اثنين ورد ما سواهما:

أما اللذان ارتضاهما فهما:

الإعجاز بالفصاحة والبلاغة والنظم، والإعجاز التأثيري.

1. الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم:

قال رحمه الله تعالى:

"القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، متضمناً أصح المعاني، من توحيد له -عزّت قدرته- وتنزيهٍ له في صفاته، ودعاءٍ إلى طاعته..." [3].

قد جمع الخطابي في هذا الوجهِ بين الفصاحة والنظم والبلاغة، أما الفصاحة والنظم فقد نصّ عليهما، وأما البلاغة ففي قوله: "متضمناً أصحّ المعاني..." إشارةٌ إليها؛ إذ البلاغة متعلقة تعلقاً كبيراً بالمعاني.

وهذا الوجه الذي جاء به يكاد يكون مجمعاً عليه عند كل من تكلم في الإعجاز.

وقد قرر أحد المعاصرين[4] أن الخطابي يرى أن البلاغة ليست جهةَ إعجاز، والخطابي لم يقل بهذا على إطلاقه، لكنه عدّ البلاغة جهةَ إعجاز مؤتلفةً مع غيرها وليست مستقلة بنفسها، وإنما صنع ذلك لأنه رأى أن عامة مَن جعل البلاغة وحدها وجهاً للإعجاز "قد جَرَوْا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد، وضربٍ من غلبة الظن، دون التحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغةِ التي اختص بها القرآن، الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده..." [5].

---

(1) الكتاب مطبوع ضمن مجموع يحوي ثلاثة كتب في الإعجاز، وحققه محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، نشر دار المعارف، القاهرة.

(2) "إعجاز القرآن الكريم": 40.

(3) "بيان إعجاز القرآن": 27.

(4) هو الدكتور عبد الفتاح لاشين في كتابه "بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار": 446-447.

(5) لعل هذا هو ما يعرف بالذوق، أي أن إعجاز القرآن يُتذوق لكنه لا يُستطاع تقعيده.

قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبةٌ في السمع وهشاشةٌ في النفس لا توجد مثله لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة.

قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيلَ به على إبهام"[1].

فهل في كلام الخطّابي ما يفهم منه أنه يرى أن البلاغة ليست وجهاً من أوجه الإعجاز؟ لا أظن ذلك، إنما غاية ما يُفهم منه -والعلم عند الله تعالى- أن الذين ذكروا البلاغة قد جاء تعريفهم لها قاصراً، أو أنهم لم يحسنوا تعريفها.

لكني لا أوافق الخطّابي على أن عدم استطاعة التعبير عن الإعجاز إنما هو "إشكال أُحيل به على إبهام"، بل لعل عدم استطاعة إدراك موطن الجمال في الشيء تكون إدراكاً كاملاً له، والله أعلم.

2. الإعجاز التأثيريّ:

وهو الوجه الآخر من وجهي الإعجاز اللذين ارتضاهما: الإمام الخطابي، رحمه الله تعالى.

وهذا الوجه قد تفرد الخطابي به وسبق غيره إلى تقريره، وإنما ارتضاه وجهاً من أوجه الإعجاز لـ "صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن -منظوماً ولا منثوراً- إذا قرع السمعَ خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور..." [2].

ثم ذكر أمثلة من عصر النبوة تؤيد ما ذهب إليه وارتآه.

أما الأوجه التي ردّها فهي:

1. الصَّرفة

وقد ردها بدلالة قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [3].

حيث أشار الله تعالى فيها إلى "أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصَّرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم"[4].

---

(1) "بيان إعجاز القرآن": 24-25.

(2) المصدر السابق: 70.

(3) سورة الإسراء: آية 88.

(4) "بيان إعجاز القرآن": 22-23.

2. الإعجاز بأخبار الغيب:

و لم يردّ هذا الوجه كل الرد، إنما قال فيه بعد أن أورد آيتين من الآيات المنبئة عن أخبار الغيب المستقبل:

"ولا يُشَكّ في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزةً بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها فقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1] من غير تعيين[2]، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه"[3].

وكلامه في هذا الوجهِ جيد لكن رده للإعجاز بأخبار الغيب بالسبب الذي ذكره لا ينبغي؛ إذ يصح أن يقال إن الإعجاز بأخبار الغيب ثابت في القرآن العظيم لكنه نوع من الإعجاز الجزئي الذي لا يضره عدم انتشاره في كل آيات القرآن، وقد نصّ الخطابي على ذلك.

ثم إن الخطّابيَّ -رحمه الله تعالى- قصر الكلام على الإعجاز بأخبار الغيب على نوع منه وهو الغيب المستقبل، لكن لو عمم بإدخال الغيب الماضي لكان للمسألة وجهٌ آخر؛ إذ الغيب الماضي منتشر في القرآن انتشاراً عظيماً، وعلى كل حال سأفصل في هذه المسألة فيما بعد، إن شاء الله[4].

3. الإعجاز بالبلاغة:

وهذا هو الوجه الثالث الذي ردّه، وإنما رد الخطابي الإعجاز البلاغي إذا اقتصر عليه دون الفصاحة والنظم، وقد بينت مراده آنفاً.

8. الباقلاني:

وهو إمام من أئمة أهل السنة، وشيخ الأشاعرة وكبيرهم -باعتبار ما استقر عليه المذهب الأشعري فيما بعد- وقد ألف كتاباً في الإعجاز بعنوان "إعجاز القرآن"، وكتابه هذا "يدل بحق على علو كعب الرجل، ورسوخ قدمه، وطول باعه، وسعة اطلاعه، ففضلاً عن أنه إمام من أئمة علم الكلام فهو كذلك إمام من أئمة اللغة أدباً وشعراً وبلاغة ونقداً... ولن نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه لم يشتهر كتاب في الإعجاز كإعجاز القرآن للباقلاني، فلقد ظل هذا الكتاب على مدى القرون السالفة المرجع الوحيد لهذه المادة، بل إن كثيراً من المختصين بالدراسات القرآنية لم يعرفوا غير هذا الكتاب..." [5].

---

(1)سورة البقرة: آية 23.

(2)أي من غير تعيين سورة، بل كل سورة فيها إعجاز، وهذا ما لا يتوافر في القول بالإعجاز بأخبار الغيب؛ إذ ليس هو في كل سورة.

(3) المصدر السابق: 23-24.

(4) انظر المبحث الرابع: جهود المفسرين: مطلب تفصيل القول بالإعجاز بأخبار الغيوب، ص:45.

(5) "إعجاز القرآن الكريم": 50.

وكتابه هذا عظيم الخطر، شريف المباحث، سلس العبارة، متين الأسلوب، قــويّ الحجــة، كيــف لا ومصنفه معروف بقوة الحجة والذكاء ونصاعة البيان.

وهو أول كتاب -جامع في بابه[1]- يصنفه إمامٌ من أئمة أهل السنة فيما أعلم[2]، والله أعلم.

والمصنف "أثر جليل يدل على حِذْق المتكلمين للبيان فضلاً عن حِذقهم لعلم الكلام..." [3].

و "لعل أكبر جهد قام به مؤلف لبيان إعجاز القرآن هو جهد الباقِلانيّ في كتابه "إعجاز القرآن""[4].

والكتاب ذو فصول كثيرة ، بدأه المصنف -رحمه الله تعالى- ببيان شرف هذا الكتابِ العظيم، وبيانِ أن نبوة محمد ﷺ معجزها القرآن، وأهميةِ الكشف عن وجوه إعجازه.

ثم ذكر أن القرآن معجز للجن والإنس معاً.

ثم ذكر القول بـــ "الصَّرفة" ورد عليه رداً مجملاً.

ثم ذكر وجوه الإعجاز في كتاب الله تعالى -على ما يراه ويقدره- ذكراً مجملاً، ثم كرّ عليها بالتفصيل بعد ذلك.

ثم ذكر فصولاً متنوعة تتعلق بإعجاز الكتاب العظيم، مثل قدر المعجز من القرآن، وهل يُعلم الإعجـــازُ بالضرورة، إلى غير ذلك من مباحثَ كثيرة.

وجوه إعجاز القرآن العظيم عند الباقلاني:

ذكر الإمام الباقلاني في كتابه ثلاثة وجوه للإعجاز[5]، وبيّن أن ذلك هو المعتمد عند أصحابه وغيرهم، وهذه الوجوه هي:

1. الإخبار عن الغيوب.
2. معرفة كتب المتقدمين، وأقاصيصهم، وأنبائهم وسِيَرهم.
3. أن القرآن بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه.

وقد أجمل ذكر الوجهين الأولين، وأورد بعض الأدلة التي تؤيد ما ذهب إليه فيهما.

ثم إنه فصّل الوجه الثالث في عشرة أوجه هي:

1. مخالفة نظم القرآن لجميع كلام العرب؛ فليس هو شعراً ولا نثراً مسجوعاً أو غير مسجوع[6].

مسجوع[6].

(1) بلغ حجم الكتاب قرابة خمسمائة صفحة.

(2) وذلك لصغر حجم رسالة الإمام الخطابي -رحمه الله تعالى- ولقلة مباحثها.

(3) المصدر السابق: 532.

(4) المصدر السابق: 530.

(5) المصدر السابق: 33 وما بعدها.

(6) "إعجاز القرآن": 35.

2. كثرة آيات القرآن وطولها مع التناسب في البلاغة والحِكم الكثيرة، أمّا كلام البشر فإن المعدود منه بليغاً إنما هو كلمات معدودة وألفاظ قليلة[1].

3. عدم التفاوت في النظم، والمنـزلةُ العليا في التأليف والرصف مع اختلاف الأغراض التي يتناولها القرآن، بينما يختلف كلام البشر اختلافاً بيّناً بحسَب الغرض المتناوَل وسبكِ الكلام من شعر أو نثر[2].

4. نظم القرآن يجمع بين الوجوه الكثيرة فيجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباينَ كالمتناسب، بينما يتفاوت كلام الفصحاء تفاوتاً بيناً في ضم وجمع الكلام المتنافر[3].

5. نظم القرآن فاق في بلاغته كلام الجن كما فاق كلام الإنس[4].

6. القرآن يشبه كلام العرب في الشكل، ويخالفه في المضمون إلى الحد المعجز، قال الباقِلاني:

"الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارةِ والتصريح... ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجودةٌ في القرآن، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتادِ بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة"[5].

7. إحكام الألفاظ وقوة المعاني، وسريان ذلك حتى في المواضع العقدية والتشريعية، قال الباقِلاني:

"المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع..." [6].

8. كلمات القرآن دُرر كلها، ليس فيها كلمة نافرة، قال الباقلاني:

"الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام... فتتشوّق إليها النفوس... كالدرة التي تُرى في سلك من خرز... وأنت ترى الكلمة من القرآن يُتمثّل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غُرّة جميعه، وواسطة عِقده..." [7].

9. حروف كلمات القرآن هي عين حروف كلام العرب لكن النظم معجز، قال الباقلاني:

"الحروف التي بُني عليها كلام العرب تسعةٌ وعشرون حرفاً... وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم... أربعة عشر حرفاً... ليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم..." [1].

---

(1) المصدر السابق: 36.

(2) المصدر السابق: 36-38.

(3) المصدر السابق: 38.

(4) المصدر السابق: 38-41.

(5) المصدر السابق: 42.

(6) المصدر السابق.

(7) "إعجاز القرآن": 42-44.

ثم تكلم على هذه الأحرف وبعض صفاتها ليخلص إلى أن الذي نظم هذه الأحرف هذا النظمَ المعجز على صفاتها التي هي عليها في كتاب الله -تبارك وتعالى- لا يجوز أن يكون غير الله، تعالى[2].

10. الكلام القرآني "خارج عن الوحشي المستكرَه، والغريب المستنكر، ومن الصَّنعة المتكلفة". وهو مع قربه إلى الأفهام "ممتنع المطلب، عسيرُ المتناوَل[3]، غير مقدور عليه بوجه من الوجوه"[4].

والناظر في هذه التقسيمات العشرة للوجه الثالث للإعجاز يلحظ أن بعضها متداخل في البعض الآخر ومندرج فيه؛ وذلك في التقسيم الثاني والثالث والرابع، ويلحظ -أيضاً- أن واحداً منها متعلق بوجه ما بالإعجاز لكنه ليس هو الإعجاز، وذلك هو الوجه الخامس.

مناقشة الأوجه التي أوردها الإمام الباقلاني:

أما الوجه الأول وهو الإعجاز بأخبار الغيب فقد فصلت الكلام عليه في مكان غير هذا، وخلاصته أن الإعجاز -هنا- جزئي في الآيات الواردة بالغيوب فقط وليس كلياً[5].

وأما الوجه الثاني وهو معرفة كتب المتقدمين وأقاصيصهم وسيرهم، فهو مندرج في الوجه السابق، وقد تكلمت عليه سابقاً كذلك، وبينت أنه من قسم الإعجاز بأخبار الغيب؛ إذ سير المتقدمين وأقاصيصهم مما غُيب عن العرب بل عن أكثر البشر.

ولعل عَدّ الباقلاني له وجهاً مستقلاً إنما كان باعتبار أن الوجه الأول عنده هو الإعجاز بأخبار الغيب المستقبل فقط، كما تدل على ذلك الآيات التي ساقها الإمام الباقلاني في بيان ذلك الوجه[6]، أما الوجه الثاني فقد قصر الإعجاز فيه على الإخبار بالغيب الماضي فقط.

والوجهان يرجعان إلى وجه واحد وهو الإعجاز بأخبار الغيب مطلقاً.

وأما الوجه الثالث، وهو أن هذا الكتاب الكريمَ بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه، فإن هذا الوجه قد أجمع عليه من تكلم في الإعجاز من الأولين والآخرين إلا من شذّ كالنَّظّام وأمثاله.

أما تفصيل ما ذكره من معانٍ عشرةٍ لما ذهب إليه في هذا الوجه فقد ناقش كثير من علماء البلاغة ونقد النصوص الباقلاني فيما ذهب إليه في هذا الوجه من مذاهب، وما أتى به من آراء جديدة، وأفكار مؤسسة على

---

(1) يشير الباقلاني إلى قضية حروف أوائل السور مثل "ألم"؛ حيث إن بعض العلماء ذكر في تفسيرها أنّ القرآن مؤلف من مثل هذه الأحرف التي يتداولونها في كلامهم لكنهم عاجزون عن مثله.

(2) المصدر السابق: 44-46.

(3) أي عسير المتناوَل على من يروم معارضته، لا على من يطلب هدايته.

(4) المصدر السابق: 46.

(5) ارجع إلى المبحث الرابع: جهود المفسرين: مطلب تفصيل القول بالإعجاز بأخبار الغيوب، ص:45.

(6) "إعجاز القرآن": 48-49.

قواعدَ قويمةٍ، وليس من طريقتي أن أذكر ذلك كلّه لما فيه من خروج على موضوع البحث، ولكني أذكر ما نُقد فيه مجملاً لما فيه من الاستفادة وتحقيق المطلوب:

أولاً: أُخذ على الباقِلاني أنه بالغ في تسفيه شعر العرب مبالغة عظيمة(1)، ففي سبيل أن يبيّن للناس عظمة نظم القرآن وبلاغته حاول أن يهدم أجمل ما عند العرب من شعر، وهو أمر قد تكلف في إثباته بما لا وجه له ولا مدخل في قضية الإعجاز، بل إن عكس ذلك -في تقديري- هو الصحيح؛ أي أنه لو أبرز ما في قصائد العرب من جمال وبلاغة ثم أثبت بعد ذلك عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لكان أليقَ وأعظمَ دلالة على سموّ هذا الكتاب العظيم.

وربما حمله على ذلك ما ذكره من أنّ بعض الجهّال "جعل يَعْدِله(2) ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يُفضله عليه"(3).

ولا شك أن ما وقع من خلل فيما ذكره من القصائد إنما هو خلل بشريّ لا تنتفي منه قصيدة ولا يخلو منه كلام بشر، ولا يستقيم للباقلاني، في تقديري، ما صنعه من موازنة أجود شعر العرب -في ظنه- بما في القرآن من بلاغة وسموّ، وذلك لاتفاق العقلاء وأهلِ الرأي أنه لا سبيل إلى بلوغ شعر واحد من الشعراء مبلغ القرآن أو قريباً منه حتى يوازَن بينه وبين الشعر.

وللأستاذ محمود شاكر كلام دقيق في هذا الباب يتلخص أن الباقِلاني عندما نقد الشعر الجاهلي ممثلاً في معلقة امرئ القيس(4) قد افتتح باباً لنقد الشعر الجاهلي برمّته نقداً تجاوز حدوده إلى التشكيك بصدق وروده تاريخياً وإلى أنه مختلق مهلهل(5).

ثانياً: أُخذ على الباقلاني أن كتابه فيه حشو كثير وتطويل، وفيه استكثار من الأمثلة والشواهد، وقد ردّ بعض النقاد هذا الاعتراض وبينوا وجهة الباقِلاني فيما ذهب إليه(6).

وقد أخذ بعض النقّاد على الباقلاني مآخذ في نواحٍ متخصصة يكفي الإحالة عليها إذ لا مجال لذكرها في هذا المبحث المختصر(7).

هذا ما تيسر من الكلام على الإعجاز في كتاب الإمام الباقلاني(1).

---

(1) انظر المصدر السابق: 158-183، وانظر -كذلك في الرد على مذهب الباقلاني هذا- مقدمة الأستاذ أحمد صقر لكتاب الباقلاني، و"المباحث البلاغية": 216، و"الإعجاز البلاغي": 284-354، و"الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن": 373-428 وهو أجود الكتب نقداً لمذهب الباقلاني -فيما رأيت من الكتب- لولا أنه شانه بذكر أن القضايا الأخلاقية لا شأن لها بجودة الشعر وأن الدين بمعزل عن الشعر. انظر: 394-401.

(2) أي القرآن.

(3) "إعجاز القرآن": 5.

(4) هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث الكنديّ، أشهر شعراء العرب، يماني حضرميّ الأصل وولد بنجد أو باليمن. اشتهر بلقبه واختلف في اسمه على أقوال. كان أبو ه ملكاً فقتله بنو أسد فجدّ حتى أخذ بثأره، ثم جرت له حوادث حتى مات بأنقرة سنة 80 قبل الهجرة تقريباً. ويعرف بـ "الملك الضِلّيل" لاضطراب أمره طول حياته. انظر "الأعلام": 11/2-12.

(5) انظر بحثه الطويل في مقدمته لكتاب الأستاذ مالك بن نبي: "الظاهرة القرآنية": 32-50.

(6) انظر "الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن": 528-529.

(7) المصدر السابق: 189-208.

هؤلاء العلماء الثمانية الذين أوردتهم هم -في ظني، والله أعلم- مؤسسو علم الإعجاز، والسابقون الأولون فيه، وعليهم كان عالةً مَن جاء بعدهم، سوى الإعجاز العلمي والتشريعي اللتين كان الجهد المبذول لهما في المتأخرين أقوى وأوضح، والآثار الناجمة عنهما أجل وأعظم من عمل السابقين، كما سأوضح بعد إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

المبحث الثاني: جهود علماء اللغة والأدب

في هذا المبحث وما بعده سآتي -إن شاء الله تعالى- على جهود العلماء في بيان الإعجاز في كتاب الله تعالى بعد عصر المؤسسين، وسآتي على علماء كل علم على حدة في مبحث منفصل، لكن الحديث عنهم سيكون بإيجاز لئلا يطول البحث.

فأما علماء اللغة فمنهم[2]:

1. عبد القاهر الجُرْجاني[3]:

وقد تحدث عن الإعجاز اللغوي في رسالتين: "الشافية" وهي موجزة، مطبوعة متداولة، والأخرى مطولة وهي "دلائل الإعجاز"، وهذه الرسالة الأخرى هي المهمة، وقد ظهر فيها تأسيس القول بإعجاز نظم القرآن، وهو قائم على أمرين:

حسن اختيار المعاني، وجودة ترتيب الألفاظ، وبهذا -يجمع- رحمه الله بين كلام القائلين بنصرة المعنى في إظهار الإعجاز والآخرين القائلين بنصرة اللفظ، وقد بنى نظريته تلك -أي إعجاز نظم القرآن- على توخي معاني النحو، وأطال في تقرير ذلك، وجاء بشيء جديد باعتبار مجموع ما خرج به لا أفراده فقد كانت شيئاً معلوماً من قبل، والله أعلم.

لكن الجرجاني لم يرتب كتابه كما ينبغي ولذلك نقده الإمام الرازي[4] بقوله:

"أهمل رعاية ترتيب الفصول والأبواب، وأطنب في الكلام كل الاطناب" هذا بعد أن أقر له بالفضل والسبق والأستاذية[5].

---

(1) "إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء": 185-192.

(2) وقدا ابتدأت بهم لأني أظن -والله تعالى أعلم- أن الإعجاز قد أسس معظمه في ذلك الزمان على جهودهم.

(3) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، أبو بكر الجرجاني، شيخ العربية. كان شافعياً، أشعرياً، عالماً، ذا نسك ودين. وكان آية في النحو. توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، انظر "الأعلام": 48/4.

(4) محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري، الإمام فخر الدين الرازي، ابن خطيب الريّ، إمام المتكلمين. ولد سنة 543، واشتغل على والده وغيره، وانتشر اسمه وبعد صيته، وقصد من الأرض لطلب العلم. وكانت له يد طُولى في الوعظ باللسان العربي والفارسي. اشتهرت مصنفاته في الآفاق توفي بهَراة سنة 606، رحمه الله تعالى. انظر "طبقات الشافعية الكبرى": 81/8-96.

(5) "نهاية الإيجاز":51.

2. الزمخشري[1]:

وقد سلك طريق عبد القاهر وطريقته، وظهر ذلك جلياً في تفسيره للقرآن الذي أودعه في كتابه "الكشاف" المشهور:

"لقد كان الزمخشري بحق عالماً ألمعياً وجِهْبذاً أحوذياً، هضم نظرية عبد القاهر في النظم، واستثمرها استثماراً تاماً في تطبيقها على آي الذكر الحكيم، وظهر ذلك جلياً في الكشاف ... بل زاد عليها كثيراً مما جادت به قريحته، وأنتجه فكره".[2]

وبعض العلماء يرى أن بيان الإعجاز اللغوي خُتم بالجرجاني والزمخشري، وأن الذين جاؤوا من بعدهما لم يضيفوا شيئاً ذا بال[3]، وأخالفه في هذا كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- من ذكر جهود ثلاثة علماء أضافوا إلى قضية بيان الإعجاز اللغوي إضافات جديدة، وهم من أهل القرن الرابع عشر/ العشرين الميلادي، بعد انقطاع طويل في التأليف المستقل في الإعجاز بلغ أربعة قرون تقريباً -فيما أعلم، والله أعلم- وهؤلاء هم الرافعي[4]، وسيد قطب[5]، ومحمد عبد الله دراز[6]، أما الرافعي وسيد فأورد عملهما هاهنا، وأما دراز ففي مكان آخر إن شاء الله تعالى[7]:

1. **الرافعي:**

وقد كان له جهود جليلة في إبراز الإعجاز اللغوي في حُلة قشيبة: "وهو وإن كان يلتقي في كثير من الحقائق مع ما كتبه الأقدمون فإنه -والحق يقال- صاغ ذلك كله صياغة جديدة ببراعة بيانه وقوة أسلوبه،

ولعل صنيع الإمام عبد القاهر في إهماله الفصول والأبواب يعود إلى أنه كان مؤسساً ومفصلاً لنظريته في الإعجاز بالنظم فلم يراع التقسيم إلى أبواب وفصول حيث إن كلامه جاء متصلاً في الرسالة مسهباً، والحق أن كتاب عبد القاهر "دلائل الإعجاز" ما كان ليفهم حق الفهم لولا أن الله تعالى قيض له الأديب المصري المشهور محمود شاكر -رحمه الله تعالى- فقد حققه تحقيقاً رائعاً ظهرت جودته في مواضع كثيرة منها تقسيم الكتاب إلى فِقَر وتوضيحه، ووضع عناوين مناسبة تساعد على الاسترسال في القراءة دون صعوبة كبيرة وباستيعاب أفضل وفهم أجود.

(1) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الخوارزمي الزمخشري. ولد بزمخشر من أعمال خوارزم سنة 467. كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسعَ العلم، كثير الفضائل، متفنناً في علوم شتى، معتزليَّ المذهب مجاهراً بذلك. له عدة تصانيف. توفي بخوارزم سنة 538. انظر "معجم الأدباء": 126/19-135. وكتابه هذا طبع عدة طبعات بحواش متعددة.

(2) "إعجاز القرآن الكريم": 79.

(3) مثل الأستاذ الدكتور فضل عباس في كتابه "إعجاز القرآن الكريم": 82.

(4) مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد الرافعي. عالم بالأدب. من كبار الكُتّاب، وشاعر. أصله من طرابلس الشام. ومولده في بَهْتِيم بمصر سنة 1298. أصيب بصمم. وشعره فيه جفاف، ونثره من الطراز الأول. توفي في طنطا سنة 1356، رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام" : 235/7.

(5) هو سيد بن قطب بن إبراهيم. مفكر إسلامي مصري. ولد في أسيوط سنة 1324. وتخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة 1353، وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في بعض المجلات الأدبية، وعين مدرساً للعربية، ثم تنقل في الوظائف الحكومية. انضم إلى الإخوان المسلمين سنة 1373، ثم سجن فعكف على تأليف صفوة كتبه في السجن، ثم أعدم بعد ذلك سنة 1387. انظر "الأعلام": 147/3-148.

(6) محمد بن عبد الله دِرَاز. عالم، محقق، مصري، أزهري. كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر. له عدة كتب، توفي -رحمه الله تعالى- سنة 1377. انظر "الأعلام": 246/6.

(7) انظر ص: 60.

وجميل تصويره ونفث أحاسيسه، وصادق عاطفته، وشدة غيرته الإيمانية، وسعة معرفته باللغة وأسرارها، فلقد هضم ما كتبه الأقدمون في موضوع اللغة على تعدد جهاته ونواحيه ..." [1].

"والرافعي منحة من منح الله لهذه الأمة في عصر كان الناس في أمس الحاجة إليه؛ فلقد وهبه الله –تعالى– قلماً ذاباً عن القرآن ولغته أمام هجمات شرسة، وحقاً كان الرافعي كاتب العربية المنافح عنها، جعل الله منه في الأواخر كما جعل من حسّان في الأوائل..." [2].

وقد جاء الرافعي في مدة صعبة كان فيها جل الأدباء قد تغرّبوا وابتعدوا عن الدراسات القرآنية فلا جرم إذن أن حورب حرباً شعواء.

وإن "من أبرز الأسباب التي كتبت للرافعي الشهرة والمجد وعلو المنزلة بين دارسي الإعجاز، وجعلت لكتابه "إعجاز القرآن" نمطاً معيناً بين ما كتبه القدامى والمحدثون عن الإعجاز القرآني ما كتبه عن انسجام الحروف وأثره في البلاغة القرآنية، فما كتبه الرافعي عن الموسيقى القرآنية[3] التي نشأت عن توالي الحروف وانسجامها يعتبر من غير شك ميزة وسبقاً وتفرداً له في ميدان البلاغة القرآنية". [4]

وإليكم شيئاً من التفصيل لما ورد في كتابه المسمى "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" في قضية الإعجاز القرآني:

كان للأستاذ الرافعيّ –رحمه الله تعالى– فضلُ السبق في الكلام على الإعجاز في القرن الرابع عشر على هذا النحوِ من البسط والتوسع في العرض بذكر مباحثَ متعلقةٍ بالإعجاز تعلقاً مباشراً، فقد جاء مبحث الإعجاز قسماً من أقسام الكتاب حيث إنه يحتوي مباحث قرآنية عديدة نحو: تاريخ القرآن، والقراءات، وآداب القرآن إلخ...

هذا وإن جاء الإعجاز القرآني مبحثاً في كتاب الرافعي إلا أنه أكبر مباحث الكتاب حجماً[5].

وقد قسم المصنف –رحمه الله تعالى– هذا المبحث إلى أقسام:

1. معنى الإعجاز.
2. أقوال في الإعجاز، ضمنها أقوال العلماء في إعجاز القرآن من أهل السنة والمعتزلة، وأقوال من أنكر الإعجاز إلخ....
3. ذِكر بعض المصنفات في الإعجاز.
4. حقيقة الإعجاز.

---

(1) "إعجاز القرآن الكريم": 87.

(2) المصدر السابق: 85.

(3) لا أفضل استعمال هذه الكلمة تأدباً مع القرآن وتعظيماً له، إنما هو الجَرْس القرآني، وسيأتي تفصيل هذا قريباً إن شاء الله.

(4) "إعجاز القرآن الكريم": 90، وقد نقل الدكتور فضل عباس –رحمه الله تعالى– عن الدكتور فتحي عبد القادر في كتابه "بلاغة القرآن في أدب الرافعي": 187.

(5) قد استغرق البحث في الإعجاز من صفحة 139-275، والكتاب يقع في أربعين وثلاثمائة صفحة تقريباً.

يريد بهذا ما انقدح في ذهنه هو من حقيقة الإعجاز بعد طول بحث وإطالة فكر.

وهذا يحتاج إلى وقفة؛ إذ إني أعملت الذهن فيما خرج به الرافعيُّ من حقيقة الإعجاز فلم أظفر بمراده كاملاً، و لم أخرج من كلامه الطويل بتعريف محدد للإعجاز؛ ذلك أنه يقول:

"أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر، وإنضاج الروِيّة[1]، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه واطّراد أسلوبه، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة، واكْتناه الروح التاريخية في أوضاع الإنسان وآثاره، وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يُقصد إليها، والجهات التي يعمل عليها، وفي رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي، التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف وإحكام الوضع، وجمال التصوير، وشدة الملائمة حتى يكون أصغر شيء فيه كأكبر شيء فيه، نقول إن الذي ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا أن القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة..." [2].

وقد سقتُ هذا النصَّ الطويل لبيان أن الرافعيّ -رحمه الله تعالى- لم يبين لنا حقيقة الإعجاز على هيئة تعريف محدد إنما خرج بالذي سقته آنفاً وحاصله أن الإعجاز القرآني لا يستطاع تحديده -كالروح والنوم مثلاً- إذ كلٌ من الإعجاز والروح والنوم فيه إعجاز من جهة هيئة الوضع لكن القرآن انفرد عنهما وعمّا يماثلهما بأن له مادة من الألفاظ هي التي يظهر فيها وجه هذا الإعجاز.

ثم إن الرافعي يمضي ليؤكد أن:

"القرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الإنسانيّ، ومعجز كذلك في حقائقه، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء فهي باقية ما بقيت، وقد أشرنا إليها في بعض الفصول المتقدمة، على أنها ليست من غرضنا في هذا الباب وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي"[3].

فالرافعي -إذا- يعلم أن هذه الأوجه الثلاثة المذكورة هي من إعجاز القرآن ولكنه لا يريد الحديث عنها، إنما يريد إظهار حقيقة إعجاز القرآن في ألفاظه نفسها وأثرها على السامع ويبين ذلك بقوله:

"على أنها ليست من غرضنا في هذا الباب وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي؛ لأننا إنما نكتب في هذه الجهة من تاريخ الأدب دون جهة التأويل والتفسير".

ويأتي الرافعي فيؤكد بعد هذا أنه لولا أن القرآن فصيح في ألفاظه إلى حد الإعجاز لما استطاع التأثير في العرب الذين كانت الفصاحة رأس مالهم وتجارتهم[1]، وأتى بعبارة رائعة حيث قال:

---

(1) هي النظر والتفكير في الأمور بعكس البديهة، انظر "المعجم الوسيط": روو – روي.

(2) "إعجاز القرآن": 156.

(3) المصدر السابق: 156-157.

"قامت فيهم بذلك دولة الكلام، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن"[2].

ثم ذكر أن الذي غيّر طباع العرب فانقادت للإسلام وذلّت له إنما كان بسبب القرآن وإعجازه بنظمه وأساليبه، وافتنانه على هذه الوجوه المعجزة التي أقل ما توصف به أنها السحر بل السحر بعضها... وليت شعري ما هو أمر المعجزة في العقل إن لم يكن هذا من أمره"[3].

فالإعجاز عند الرافعي إذاً لا يستطاع تحديده ولا يوصف بأحسنَ من أنه معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز، ولكن يُستأنس لفهمه بما تركه من آثار عجيبة في المؤمنين به والمتبعين له، وهذه الآثار ساعد على ترسيخها في النفوس وتعميقها في شغاف القلوب ما كان عليه القرآن من الفصاحة التي لا تُستطاع والبلاغة التي في الذروة من النظم والافتنان في الأساليب، وسيأتي الرافعي على هذا كله في الفصول القادمة التي ستأتي بعد هذا الفصل.

هذا ما حاولته في فهم كلام الرافعي في الإعجاز، والله أعلم[4].

5. التحدي والمعارضة[5]:

قد ذكر الرافعيّ في هذا المبحث تحدي الله -تعالى- الكافرين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعض سور منه أو سورة منه، وذكر من حاول الإتيان بمثل هذا القرآن العظيم فباء بالخيبة، وذكر طرفاً من كلامهم الذي قاؤوه زاعمين به المعارضة.

6. أسلوب القرآن[6]:

وهذا مبحث موصول بما قبله؛ إذ أورد فيه سبب عدم معارضة القرآن بقوله:

"وهذا الأسلوب فإنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً[7]، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون...

فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقةً[1] فيما أَلِفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعناتٌ ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه

---

(1) "إعجاز القرآن": 159-160.

(2) المصدر السابق: 157.

(3) المصدر السابق: 165.

(4) حاول عدد من الباحثين الخروج برأي محدد في الإعجاز عند الرافعي، انظر: "الإعجاز في دراسات السابقين" للأستاذ عبد الكريم الخطيب: ص230 وما بعدها، و"فكرة إعجاز القرآن" للأستاذ نعيم الحمصي: ص329 وما بعدها، وتناوله للإعجاز عند الرافعي تناولٌ هش سريع لم يأت فيه بما ذكره الرافعي عن حقيقة الإعجاز، وإنما حاكم الرافعي إلى شيء لم يُرِده ولم يقصده في كلامه، والله أعلم.

ودراسة الدكتور صلاح الخالدي: "البيان في إعجاز القرآن" لم يتعرض فيها إلى حقيقة الإعجاز عند الرافعي وإنما اكتفى بذكر مظاهر الإعجاز عنده، انظر ص123-124.

(5) المصدر السابق: 166-187.

(6) المصدر السابق: 188-208.

(7) الإشارة في "هذا" إلى كلام العرب، كما يفهم من السياق.

في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه..." [2].

وقد أخذ الرافعيّ ابتداءً من هذا المبحث بذكر مظاهر الإعجاز في كتاب الله -تعالى- وإنما قلت مظاهر و لم أقل وجوه لأن من مذهب الرافعي -الذي ذكرته آنفاً- أن الإعجاز حقيقة لا تُصور ولا تُكيف وإنما هو معجز على إطلاقه، ويُفهم هذا الإعجاز بما يذكر من مظاهر دالةٍ عليه.

7. نظم القرآن[3]:

وقسّمه إلى ثلاثة أقسام: نظم الحروف، ونظم الكلمات، ونظم الجمل وسيأتي قريباً الكلام على هذه الأقسام.

8. غرابة أوضاعه التركيبية[4]:

وهو متعلق بالمبحث الذي سبقه -وهو نظم القرآن- والذي يليه، وهو بلاغة القرآن، حيث اجتمع لألفاظ القرآن من قوة التركيب ومن قوة البلاغة ما لم يتفق للعرب بعضه ولا قليل من بعضه[5].

9. البلاغة في القرآن[6]:

لم يتكلم الرافعي في هذا المبحث عن فنون البلاغة، إنما ذكر أن البلاغة القرآنية بلغت المبلغ الذي ليس وراءه مبلغٌ، واحتوت فنون كلام العرب جميعاً على الوجه المعجز، وقال كلمة جميلة في هذا الباب، وهي:

"إن القرآن كان عِلم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغةَ هذا العلم"[7].

10. الطريقة النفسية في الطريقة اللسانية[8]:

ومراده منها أن القرآن أورد ألفاظاً جميلة لمعاني جليلة، وهذه الألفاظ تدل بنفسها على المعاني من غير زيادة ولا نقصان، وتعبر عما في النفس تعبيراً يعجز عن مثله كل البشر.

11. إحكام السياسية المنطقية على طريقة البلاغة[9]:

ومراده -والله أعلم- أنّ فنون المنطق المعروفة قد جاءت في القرآن واضحة بارزة لكن ليس على طريقة المنطقيين من إلزام العقل وترك العاطفة والشعور وإنما بجمع الاثنين معاً؛ بحيث إن السامع لآيات القرآن العظيم

---

(1) التساوق هو المتابعة، انظر "لسان العرب": س و ق.
(2) "إعجاز القرآن": 188-189.
(3) المصدر السابق: 209-248.
(4) المصدر السابق: 249-255.
(5) المصدر السابق: 252.
(6) المصدر السابق: 256-261.
(7) المصدر السابق: 257.
(8) "إعجاز القرآن": 262-264.
(9) المصدر السابق: 265-273.

لا يستطيع أن يَصْدِف عنه ولا يجد له "مذهباً ولا وجهاً غير القصد إليه فيكون من ذلك الإلــزامُ البيانيّ الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ، وكان حتماً مقضياً"[1].

وقد استفاد من كلام ابن رشد[2] -رحمه الله تعالى- في هذه المسألة، كما أشار الرافعي في كتابه[3].

هذا موجز لكلام الرافعيّ -رحمه الله تعالى- في إعجاز القرآن، وقد عانيت في فهم بعض كلامه ومراميه ومقاصده حيث إنه قد أغلق بعض العبارات، فصعب فهم بعض آرائه ومراده منها.

وكلام الرافعي في الإعجاز -وإن ثَقُل في بعض ألفاظه ومعانيه- إلا أنه عرضه في أسلوب رصين جــزل زانه كثير من التجديد وحسن العرض.

أما الجديد في كتابه فهو كلامه في نظم القرآن في قسمي نظم الحروف ونظم الكلمات؛ فقد أتــى في قسم نظم الحروف بما يسمى بــ "موسيقى الحروف" ومراده منها جَرْس الحرف ووقعه علــى أذن الســامع، وأختار أن تغيّر هذه التسمية: "موسيقى الحروف" لثلاثة أسباب:

الأول: إجلال القرآن العظيم وتنـــزيهه عن هذه الكلمة ومدلولها.

الثاني: أن الكلمة: "موسيقى" غير عربية فلِمَ نستعملها؟

الثالث: للوهم الذي ينشأ عند العوام؛ إذ يخلطون بين المراد منها عند إطلاقها وبين ما يعرفونه هم مــن معناها الناشئ عن الآلات.

نظم الحروف:

وإنما عَظُم القرآن وأعجز الناس -في رأي الرافعي- لأسباب منها نظم حروفه وتناسق تواليها على هيئة معجزة، وخلاصة رأيه هذا مبني على ملاحظة الظواهر التالية في الأحرف مجتمعة:

1) مخارج الحروف.

2) صفات الحروف:

فالحرف مخرجاً وصفة يسلس في اللسان نطقاً ويسلس في الكلمة موقعاً، حتى كأن كل حرف يســلّم اللسان إلى الحرف المجاور على هيئة معجزة لا تتأتى لكلام آخر.

3) فواصل الحروف:

يقول الرافعي:

---

(1) المصدر السابق: 267.

(2) هو ابن رشد الحفيد، العلامة، فيلسوف الوقت، أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد بن محمد القرطبيّ، ولد سنة عشرين وخمسمائة، وبرع في في الفقه، ودرس الطب، ثم أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يضرب به المثل في ذلك، كان متواضعاً، صاحب همّة ما ترك الاشــتغال إلا ليلتين: ليلة موت أبيه وليلة عرسه، ولي قضاء قرطبة فحمدت سيرته ثم رُفعت عنه أقوال رَدِيّة إلى سلطان مراكش فحبسه بداره حتى مــات ســنة 595.

(3) المصدر السابق: هامش ص 265.

"وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورٌ تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم -وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها- أو بالمد، فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبةً للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه"[1].

نظم الكلمات:

أما نظم الحروف نفسها لتصبح كلماتٍ فقد جاء فيه بوجوه جديدة طريفة حيث قسم الكلمة من حيث الحقيقة الوضعية إلى ثلاثة أقسام:

1) صوت النفس:

"وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها، ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه، على طريقة متساوقة، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس، إن وقف عندها هذا المعنى قُطع به"[2].

2) صوت العقل وتارة يعبر عنه بصوت الفكر:

"وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التي يداوَر بها المعنى لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحى إليها"[3].

3) صوت الحس:

"وهو أبلغهن شأناً، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرةً وموادعتها مرةً، واستيلائه على محضها[4] بما يورد عليها من وجوه البيان، أو يسوق إليها من طرائف المعاني، يدعها من موافقته والإيثار له كأنها هي التي تريده وكأنها هي التي تحاول أن يتصل أثرها بالكلام، إذ يكون قد استحوذ عليها وانفرد بالهوى والاستجابة، وعلى مقدار ما يكون في الكلام البليغ من هذا الصوت[5] يكون فيه من روح البلاغة"[6].

ثم قرر أن "صوت النفس طبيعي في تركيب لغتهم، وإن كان فيها إلى التفاوت كمالاً ونقصاً، وصوت الفكر لا يعجزهم أن يستبينوه في كثير من كلام بلغائهم، أما صوت الحس فقد خلت لغتهم من صريحه وانفرد

(1) "إعجاز القرآن": 216-217.
(2) المصدر السابق: 221.
(3) المصدر السابق.
(4) أي استيلائه على النفس كلها.
(5) أي صوت الحس.
(6) "إعجاز القرآن": 216-217.

به القرآن، وقد كانوا يجدونه في أنفسهم منذ افتتنوا في اللغة وأساليبها، ولكنهم لا يجدون البيان به في ألسنتهم؛ لأنه من الكمال اللغوي الذي تعاطوه و لم يُعطوْه"، في كلام طويل له في تقرير هذه المسألة يُرجع إليه[1].

ثم إنه جاء ببعض الكلمات القرآنية وضربها مثلاً لِما أراد إثباته من أن نظم الكلمات القرآنية لا مثيل له، وأن الكلمة القرآنية مهما طالت فإن لتناسق حروفها وحسنِ الفصل فيما بينها في الكلمة الواحدة أحسنَ الأثر في جمال موقعها على الأذن وعِظم تقبل السامع لها[2].

هذا وصفٌ موجز لما جاء في كتاب الرافعي من الإعجاز والمباحث المتعلقة به.[3]

2. سيد قطب:

إن الأستاذ سيداً –رحمه الله تعالى– قد جاء في كتابه "في ظلال القرآن" بمباحث لغوية لطيفة وجليلة وافق فيها الأقدمين لكنه جاء بها على هيئة جديدة وثوب جميل كسا به تلك المباحث رونقاً وروحاً تناسب العصر.

أما الذي تفرد به الأستاذ سيد –رحمه الله تعالى– في باب الإعجاز اللغوي هو نظرية التصوير الفني في القرآن، وهي جزء من الإعجاز البياني[4]، لكنه جزء جديد أو الأصح أن يقال إن الأستاذ أبرزه وأظهره حتى ساغ القول بأنه شيء جديد لم يُعرف من قبل على هذا الوجه الجامع الشامل الرائع، وخصائص نظريته تلك تقوم على التخيل الحسي، وتجسيم المعنويات حتى تصير كالمحسوسات، والتناسق الفني[5]، هذه هي الأركان الثلاثة لنظريته الجديدة كل الجدة باعتبار إنشائها وتقريرها.

ويمكن القول أيضاً إن حديثه عن القصة القرآنية كان حديثاً متفرداً أيضاً جاء فيه بجوانب رائعة يمكن عَدِّ بعضها تقريراً للإعجاز.

وفي الجملة يصح القول إن الأستاذ سيد كان من المجددين لقضية الإعجاز اللغوي على وجه يجعله –عندي– سيد المتأخرين في هذا الباب، والله أعلم، وقد فاق الرافعيَّ –في هذا الشأن– لأسباب منها:

1. سلاسة ألفاظه، وظهور معانيها ظهوراً لا لبس فيه، على العكس من الرافعيّ، رحمهما الله تعالى.

2. ربطه في كثير مما جاء به بين ما يريد إظهاره من إعجاز وبين واقع الناس وأحوالهم، وهذا ما تفرد به الأستاذ سيد –رحمه الله– تفرداً بعيداً لا يلحقه فيه أحد، ولا يبلغ مبلغه كاتب، والله أعلم.

---

(1) المصدر السابق: 222.

(2) المصدر السابق: 227 وما بعده إلى 235.

(3) "إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء": 672-681.

(4) كما قرر ذلك الدكتور فضل عباس –رحمه الله تعالى– متابعاً لكثير من العلماء كما قال.

(5) "إعجاز القرآن الكريم": 113 وما بعدها.

3. القَبول الذي كُسِي به كلامه، والانتشار الواسع الذي كتب له، بحيث أقبل عليه جماعات من عوام الناس وخواصهم لا يُحصون، بينما لم يُتح مثل هذا للرافعيّ، وهذا جعل مباحث الإعجاز التي جاء بها الأستاذ سيد -رحمه الله تعالى- متلقّاه بالقبول على وجه واسع جداً، والله أعلم.

المبحث الثالث: جهود علماء العقيدة، أو الكلام

قد تحدث علماء العقيدة عن قضية الإعجاز في كتبهم، وقد انقسم هؤلاء المصنفون إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مصنفون لا يزيدون في تصنيفهم عن ذكر الآيات والأحاديث والآثار في أبواب العقائد، وقد يورد بعض المصنفين بعض كلام سلف الأمة وأئمتها، وإن تكلموا في كتاب الله -تعالى- فإنما يكون الكلام في الرد على من قال بخلق القرآن(1) من المعتزلة وغيرهم، وهؤلاء المصنفون على هذه الطريقة لم يتطرقوا في كتبهم هذه إلى الإعجاز، لأنه لم يكن هذا المبحث متداولاً شهيراً في زمانهم.

ومن المصنفات على هذه الطريقة كتاب "السنة" للخلال(2)، وكتاب "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم" لأبي القاسم اللالْكائي(3)، وغيرهما من الكتب.

أما القسم الثاني فهم الذين شحنوا مصنفاتِهم بالرد على المعتزلة وغيرِها من الفرق الضالة، لكنّ تلك الردودَ كانت بالأسلوب الكلاميّ نفسِه الذي استعمله وبرع فيه المعتزلةُ خصوصاً، فكان من البدهيِّ أن تكون مثل هذه المصنفاتِ الرادّة على هذه الفرقِة مشحونةً بالكلام على القرآن العظيم من حيث كونه غيرَ مخلوق، ومن حيث إعجازه، وغير ذلك من المباحث المتعلقة بالقرآن العظيم.

ومن المصنفات على هذه الطريقةِ كتابُ "الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به" للإمام أبي بكر الباقلانيّ، رحمه الله تعالى، وكتاب "أصول الدين" لعبد القاهر البغدادي(4).

ولئن اختلفت الأنظار في تقويم ما صنعه هؤلاء الأئمة الرادون على الفرق الضالة من حيث استعمالهم لعلم الكلام، وتوسعُهم وتوغلهم فيه، وعدمُ نهجهم سبيلَ السلف في الاكتفاء بإيراد الأدلة القرآنيةِ والأحاديث

---

(1) هذه قضية فلسفية تسربت إلى المسلمين من آثار الفلسفات الأجنبية، وكانت الجهمية ومِن بعدهم المعتزلة هم الذين قالوا بها ورفعوا لواءها وفرضوها على الناس بقوة السلطان، فتصدى لهم الإمام أحمد وأئمة أفذاذ آخرون نصر الله تعالى بهم الدين، ثم انقشعت هذه الفتنة في عهد الخليفة المتوكل، انظر في قضية خلق القرآن: "لوامع الأنوار البهية": 161/1 وما بعدها، وانظر قصة الفتنة بالقول بخلق القرآن: سير أعلام النبلاء": 232/11 وما بعدها.

(2) الإمام العلامة، الحافظ الفقيه، شيخ الحنابلة وعالمهم، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون البغداديّ الخلال. ولد سنة أربع وثلاثين ومائتين، وأخذ الفقه عن خلق كثير من أصحاب الإمام أحمد، ورحل كثيراً، وكتب عن الكبار والصغار، وصنف عدة كتب، وكان له الفضل في تدوين علم الإمام أحمد. توفي سنة 311 عن سبع وسبعين سنة. انظر "سير أعلام النبلاء": 297/14-298. وكتاب الخلال هذا مطبوع.

(3) الإمام الحافظ المفتي، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور، الطبري الرازي، الشافعي اللالْكائي، مفيدُ بغداد في وقته. له مصنفات قليلة، وكان صاحب فهم وحفظ. توفي بـ (الدِّينَوَر) سنة 418. انظر "سير أعلام النبلاء": 419/17-420، وكتابه هذا مطبوع متداول.

(4) العلامة البارع، المتفنن الأستاذ عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أبو منصور، نزيل خرسان. صاحب تصانيف بديعة, وأحد أعلام الشافعية، كان يدرس في سبعة عشر فناً، ويُضرب به المثل. توفي بـ "إسفرايين" سنة 429 بعد أن شاخ. انظر "سير أعلام النبلاء": 572/17-573.

والآثار في معرض ردهم على الضالين، أقول: لئن اختلفت الأنظار في تقويم صنيعهم هذا فإن ما يعنينا في هـــذا البحثِ هو تقويم ما ذكره هؤلاء الأئمة في مصنفاتهم عن الإعجاز، وبيانُ جهدهم الذي بذلوه في هذا الباب.

الثالث: ومن الأئمة مَن جمع بين الطريقتين فأورد في كتابه عدداً وافراً من الأحاديث والآثـــار مازجـــاً إياها بالكلام على المباحث العقدية بالأسلوب الكلامي غير الغالي.

ومن هؤلاء الإمام ابن خزيمة[1] –رحمه الله تعالى– في كتابه: "التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل"، والإمام البيهقي[2] –رحمه الله تعالى– في كتابه "الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد"، وغيرهما.

وأختار هاهنا كتاب الإمام البيهقي "الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصـــحاب الحديث"، أختاره نموذجاً لجهد علماء العقيدة في تقرير الإعجاز، فأقول:

أورد الحافظ البيهقيُّ –رحمه الله تعالى– في كتابه هذا عدداً كبيراً من المباحث العقدية، وساق فيها جملة وافرة من الأحاديث والآثار عن النبي ﷺ والصحابة ﷺ والتابعين الكرام.

ومن تلك المباحث المتعددة مبحث "القول في إثبات نبوة محمد المصطفى ﷺ" [3]، فذكر فيه دلائل نبوته ﷺ "وما أجرى الله على يديه من المعجزات الواضحات المفحمات، ومن تلك الدلائل فيما جاء به من عند الله سبحانه من القرآن العظيم أنه تحدى الخلق بما في القرآن من الإعجاز، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بســـورة مثله فنكلوا[4] عنه وعجزوا عن الإتيان بشيء منه"[5].

وقد ذكر الحافظ في مبحث الإعجاز جملةً من الوجوه التي كان بها القرآن معجزاً وذلك على ما تنـــاهى إلى علمه من كلام أهل العلم قبله في الإعجاز فذكر أن منها:

1. الإعجازَ من جهة البلاغة وحسن اللفظ دون النظم.
2. الإعجاز في النظم دون اللفظ[6].
3. الإعجاز بالإخبار عن الحوادث والإنذار عن الكوائن في مستقبل الزمان.
4. الإعجاز بـــ "الصَّرفة"، ونص كلامه فيها:

---

(1) الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة، أبو بكر السلمي النيسأبوري الشافعي، صاحب التصانيف، ولد سنة 223، وعُني في حداثته بالحديث والفقه حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان توفي سنة 311، وعاش تسعاً وثمانين ســـنة . انظـــر "سير أعلام النبلاء": 14/365-382.

(2) هو الشيخ الإمام العلامة أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخراساني البيهقي. ولد سنة 384، وسمع من طائفة كـــثيرة، وبـــورك في علمـــه وتصانيفه، ولد عدد من المصنفات النافعة. كان ورعاً، زاهداً، قانعاً. وكان أهلاً للاجتهاد. توفي سنة 458، ودفن بـــ (بَيْهق) من أعمال نيسأبور. انظر "سير أعلام النبلاء": 18/163-170.

(3) "الاعتقاد": 259.

(4) نَكَلَ: نَكَص وتراجع: "لسان العرب": ن ك ل.

(5) "الاعتقاد": 258-259.

(6) حكى الحافظ البيهقي رحمه الله تعالى كلام أهل العلم في الإعجاز ولذلك جاء بالقولين الأولين مفصولين وحقهما أن يجمع بينـــهما؛ لشـــدة تلازمهما.

"ومنهم من قال: إعجازه في أن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله، وصَرَف الهمم عن معارضته، مع وقوع التحدي وتوفر الدواعي إليه لتكون آيةً للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه".

5. الإعجاز بجميع ما تقدم[1].

هذا وإنه لم ينسب قولاً من تلك الأقوال الخمسة المتقدمة لأحد، و لم يَعْزُها لمصدر إنما أرسلها إرسالاً.

ثم إنه لم يرتضِ الوجه الأولَ الذي يفصل بين الألفاظ وبين النظم الذي ينظمها في سلك فريد، فقال:

"لا معنى لقول مِن زعم أن الإعجاز في لفظه؛ لأن الألفاظ مستعملة في كلام العرب ومتداولةٌ في خطابها؛ لأن[2] البلاغة ليست في أعيان الأسماء ومفردِ الألفاظ وحَسْبُ دون أن تكون هذه الأوضاع معتبرة بمحالها ومواضعها المصرَّفة إليها والمستعملة فيها[3]"[4].

ثم مثل لذلك بكلام الإمام الخطابي قائلاً:

"قال الشيخ أبو سليمان[5] رحمه الله:

وبيان ذلك أن العرب قد تعرف لفظ "الصَّدْع"[6] في لغتها وتتكلم به في خطابها ثم إنك لا تجده مستعملاً لهم في مثل قوله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[7]"[8].

أما الوجه الثاني وهو الإعجاز بالنظم دون اللفظ فقد نصره قائلاً:

"وأما إعجازه من جهة النظم فالمعجز منه نظم جنس الكلام الذي باين به القرآنُ سائر أصناف الكلام التي تكلمت بها العرب"[9].

ثم إنه أطنب في هذا، ولكنه لم يبين كيف يكون الإعجاز في النظم فقط دون اللفظ على ما ذكره في هذا الوجه، إلا أن يكون من البدهيّ عنده أن الألفاظ المجردة عن النظم هي من جنس الألفاظ الواقعةِ في كلام العرب إنما المدار على طريقة اختيارها ونظمها وسبكها، فلعلّ هذا هو الذي جعله يترك الحديث عن اللفظ والعلاقة بينه وبين النظم، والله أعلم.

---

(1) "الاعتقاد": 259.

(2) كذا في المطبوع، والوجه: ولأن بزيادة الواو.

(3) أي أن النظم الذي تُنْظَمُه هذه الألفاظ وطريقة إيرادها في جمل متناسقة معجزٌ أيضاً.

(4) "الاعتقاد": 259.

(5) هو الخطابي كما ورد في مواضع من كتاب البيهقي بقوله: أبو سليمان الخطابي.

(6) الصَّدْع هو الشَّق في الشيء الصلب كالزجاجة ونحوها، وقوله تعالى ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ أي شُق جماعاتهم بالتوحيد، أو معناه اجهر بما تؤمر: من صَدَع بالأمر إذا جاهر به، وقيل معناه: افصل بالأمر، وهو مستعار من صَدْع الأجسام وقيل غير ذلك، انظر تفصيل هذا في "تاج العروس": صدع.

(7) سورة الحجر: آية 94.

(8) "الاعتقاد": 259.

(9) "الاعتقاد": 259.

ثم إنه في هذا الوجه ساق الفرق بين الفواصل في الآيات الكريمة وبين السَّجْع(1)، ونفى أن يكون في القرآن العظيم سجع.

والحق -في تقديري، والله أعلم- أن السجع موجود في القرآن الكريم لكنه سجع غير متكلف، سلسن جميل وقوعه على السمع، ولوقوعه في القرآن ضوابط، وقد بين كل ذلك ابن سنان الخفاجيّ(2) بقوله:

"بعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج(3) في الكلام، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتَعَمُّل واستكراه، فأذهب طلاوة الكلام، وأزال ماءه، وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسّنها، ويظهر آثار الصنعة فيها، ولولا ذلك لم يرد في كتاب الله تعالى، وكلام النبي ﷺ والفصيح من كلام العرب... والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يُقصد في نفسه...

وأما الفواصل التي في القرآن فإنهم سموها فواصل و لم يسموها أسجاعاً وفرّقوا فقالوا: إن السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها، وقال علي بن عيسى الرمانيّ:

إن الفواصل بلاغة والسجع عيب، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعاني، والفواصل تتبع المعاني، وهذا غير صحيح، والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال: إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول.

والفواصل على ضربين: ضرب يكون سجعاً، وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع، وضرب لا يكون سجعاً، وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع، و لم تتماثل، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين -أعني المتماثل والمتقارب- من أن يكون يأتي طوعاً سهلاً وتابعاً للمعاني، وبالضد من ذلك، حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدالُّ على الفصاحة وحسن البيان، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض.

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلوّه في الفصاحة، وقد وردت فواصله متماثلةً ومتقاربة...

فأمّا قول الرمانيّ إن السجع عيب، والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط... وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصلَ، و لم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً، رغبةٌ في تنزيه القرآن عن

---

(1) السجع هو: تواطؤ الفاصلتين، أي توافقهما من النثر على حرف واحد، وهو معنى قول صاحب "المفتاح": هو في النثر كالقافية في الشعر، وله وله أنواع وأقسام، انظر في ذلك كله "شرح التلخيص": 678 وما بعدها.

(2) هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر، شهاب الدين الخفاجيّ المصري الحنفيّ، صاحب التصانيف السائرة، وأحد أفراد الدنيا. أخذ عن عدد من مشايخ عصره، وأخذ الطب عن داود الأنطاكيّ، وقد ارتحل إلى القسطنطينية وأخذ عن فضلائها ومشايخها. توفي بمصر سنة 1069 وقد أناف على التسعين.

(3) الازدواج: هو تجانس اللفظين المجاورين، نحو: من جَدَّ وَجَدَّ، ومن لَجَّ وَلَجَّ: "جواهر البلاغة": 404.

الوصف اللاحق بغيره من الكلام، والمرويِ عن الكهنة وغيرهم، وهذا غرض في التسمية قريب، فأمّا الحقيقة فما ذكرناه"[1].

أما الوجه الثالث -وهو الإخبار عن الكوائن المستقبلة- فقد ارتضاه وساق له من الشواهد الشيءَ الكثير، ساقها كلها بأسانيدَ منه إلى منتهاها كما هي طريقته في جلّ ما أورده في كتابه.

وقد بينت رأيي في الإعجاز بأخبار الغيب سابقاً، وذكرت أنه إعجاز جزئي لا كليّ بمعنى أنه ليس منتشراً في كل آيات القرآن، وسيأتي تفصيل لهذا إن شاء الله[2].

أما الوجه الرابع -وهو الإعجار بـ "الصَّرفة"- فقد سقت كلامه نصاً خوفاً من اللبس، أو أن أتهم بأني أُقوّل الرجل ما لم يقله، وذلك لأنه كان واضحاً بأنه يقول بـ "الصَّرفة"[3] وزاد ذلك توضيحاً بقوله شارحاً المراد منها:

"وأما الصرفة والتعجيز -مع توهم القدرة منهم على الإتيان بمثله- فإنما يُعلم ذلك بعدم المعارضة مع توفّر الدواعي وشدة الحاجة إليه، وذلك ما لا يجوز أن يشك فيه عاقل من أنهم لو كانوا قادرين عليه لبادروا إليه مع حرصهم على إبطال دعوته ونقض كلمته ...

وسبيل هذا سبيل رجل عاقل اشتد به العطش وبحضرته ماء، فجعل يتلّوى من شدة الظمأ ولا يشرب الماء، فلا يشك شاكٌ أنه عاجز عن شربه، أو ممنوع لسبب يعوقه عنه وأنه لم يتركه اختياراً مع توفر الدواعي له، وشدة الحاجة منه إليه"[4].

وكلامه من قوله: "وسبيل هذا ..." إلى آخر ما أورده واضح في إرادته الصَّرفة، إلا أن يقال إنه ذكر القولين معاً: الإعجاز البلاغي والإعجاز بـ "الصَّرفة" ثم لم يرجح أحدهما، والله أعلم.

أما الوجه الخامس وهو أنه قد وقع الإعجاز بالأوجه الأربعة السابقة كلها فسبيل الرد عليه هو ما نوقش به كل وجه من الأوجه الأربعة السابقة؛ إذ الوجه الأول لم يرتضه هو نفسه، والوجه الثاني لم أرتضِهِ على إطلاقه -كما بينت ذلك- والوجه الثالث مقبول بشرط اعتباره جزئياً كما بينت سابقاً، والوجه الرابع -وهو الصَّرفة- مردود.

هذا ما تيسر من الكلام على كتاب "الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد" وبيان ما فيه من مباحث الإعجاز.

---

(1) "سر الفصاحة": 171-174 بتصرف.

(2) وانظر المبحث الرابع: جهود المفسرين: مطلب تفصيل القول في الإعجاز بأخبار الغيوب، ص:45.

(3) وذلك حين قال في الوجه الرابع الذي سقته آنفاً.

"ومنهم من قال: إعجازه في أن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله، وصرف الهمم عن معارضته مع وقوع التحدي وتوفر الدواعي إليه لتكون آية للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه": "الاعتقاد": 259. ثم إنه لم يردّ هذا الكلام بل صدقه كما في النقل عنه في متن هذه الصفحة.

(4) المصدر السابق: 266.

المبحث الرابع: جهود المفسرين

قد كثر الكلام على الإعجاز في كتب المفسرين في موضعين:

الموضع الأول: في المقدمات التي قدم بها بعض المفسرين لتفسيره.

الموضع الآخر: عند تفسير الآيات التي تتحدث عن تحدي الله -تبارك وتعالى- الخَلْقَ في أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم.

وأما القسم الأول فكصنيع الإمام الطبري[1] في مقدمة تفسيره: "جامع البيان": 1/8-12.

وكصنيع الإمام ابن عطية في مقدمة كتابه "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز".

وكصنيع الإمام القرطبي[2] في مقدمة كتابه "الجامع لأحكام القرآن": 1/69-78.

وأما القسم الآخر فيتعذر حصره لكثرته، فقد تكلم المفسرون على آيات التحدي كلاماً طويلاً بل لم يترك أي مفسر في تفسيره الحديث عن التحدي للكافرين ليأتوا بمثل هذه الكلام المبين.

وسآتي هنا بمثل على جهود المفسرين في خدمة قضية الإعجاز، ألا وهو كتاب "المحرر الوجيز" لابن عطية السالف الذكر، فأقول:

هذا الكتاب مهم من حيث إنه كتاب لمصنف أندلسيّ، يمثل مدرسة تراثية عظيمة، تُكمل ما كان في المشرق من جهود علمية وثقافية ضخمة في ذلك العصر.

وهو من جانب آخر قد عرض للإعجاز القرآني بطريقة مناسبة ليس فيها تطويل ممل ولا قِصَر مخل.

وقد تحدث الإمام ابن عطية عن الإعجاز في موضعين من كتابه:

أولاً: في المقدمة: التي حوت علوماً من القرآن منها إعجازُه.

والموضع الآخر: في سياق آيات التحدي للكافرين بأن يأتوا بمثل هذا الكتابِ العظيم.

أما المقدمة فقد أورد فيها ثلاثة أوجه للإعجاز، ارتضى منها واحداً ورد الوجهين الباقيين[3]، وهذه الأوجه الثلاثة هي:

1) "التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وأن العرب كُلفت في ذلك ما لا يُطاق، وفيه وقع عجزها"[4].

2) "التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأنباء الصادقة والغيوب المسرودة".

---

(1) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، الإمام العَلَم المجتهد. ولد سنة 224 بآمُل طَبَرستان. وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرةَ تصانيف. وكان من كبار أئمة الاجتهاد، وأكثر الترحال في طلب العلم ثم استقر ببغداد وتوفي بها سنة 310. انظر "سير أعلام النبلاء": 14/267-282.

(2) هو الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي. إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطّلاعه ووفور فضله. توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة في صعيد مصر. انظر "الوافي بالوفيات": 2/122-123.

(3) "المحرر الوجيز": 1/38-40

(4) "المحرر الوجيز": 1/38.

3) "التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه[1]، وتوالي فصاحة ألفاظه"[2].

وقد ارتضى الوجه الأخير ورجّحه، وذكر أنه هو "الذي عليه الجمهور والحذاق، وهو الصحيح في نفسه"[3].

ودلل على صحة هذا الوجه بأن "الله -تعالى- قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّه علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن عَلِمَ بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتُبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورةً أن بشراً لم يكن قطُّ محيطاً"[4].

والحق أن هذا الوجه الذي ارتضاه هو الوجه الذي أطبق عليه سائر من تكلم في الإعجاز القرآني، لم يشذّ عنه إلا من لا وزن لرأيه -علمياً- ولا قيمة كالنظّام وأمثاله.

وقد أشار ابن عطية -رحمه الله تعالى- إلى البلاغة بقوله: "وصحة معانيه"، فاجتمعت بذلك أوجه الإعجاز التي أطبق عليها أكثر من تكلم في الإعجاز وهي:

جودة النظم، والطبقة العليا من البلاغة، والفصاحة.

أما الوجهان اللذان ردّهما وهما:

وقوع التحدي بالكلام القديم، والتحدي بالغيوب، فإنه لم يبين الوجه الأول، ولم يتوسع في الرد عليه.

وأما الوجه الآخر فقد توسع في الرد عليه في ثنايا كتابه.

واكتفى بالرد عليهما في المقدمة بقوله:

"وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما[5] مَن تقررت الشريعة ونبوة محمد ﷺ في نفسه، وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يُتحدى فيما يبين له بينه وبين نفسه عجزه عنه"[6].

ولعل عدم توسعه في الرد إنما كان اعتماداً منه على سلوك سبيل الإيجاز في كل ما أورده من أبحاث في مقدمته، ومنها مبحث الإعجاز.

بيان الوجه الأول وردّه:

وهذا الوجه هو الذي أخبر عنه بقوله:

---

(1) أي ببلاغته؛ إذ هي العلم المتعلق بالمعاني.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق، وقد نصر الإمام ابن عطية هذا القولَ أيضاً في ثنايا كتابه، انظر: 144/1.

(4) المصدر السابق: 38/1-39. وقد ذكر كلاماً حول هذا في كتابه "المحرر الوجيز" نفسه: 45/9-46 عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾: سورة هود: آية 13.

(5) "فيهما" هنا بمعنى عنهما، أو أن المراد بالعجز في كلامه هو الإعجاز، أو لعل اللفظة قد حرفت.

(6) المصدر السابق: 38/1.

"التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وأن العرب كُلفت في ذلك ما لا يطاق وفيه وقــع عجزها".

ولأن الشيخ رحمه الله قد أوجز القول فيه إيجازاً، فإني أوضحه وأذكر الرد عليه فيما يلي:

إن مقتضى عبارات السلف في كلام الله -تعالى- أنه صفة ذات وصفة فعل معاً، فالله متكلم بما شــاء متى شاء سبحانه، وكلامه قائم بنفسه، سبحانه وتعالى[1]، أما من خالف في هذا فانقسم إلى أقسام منــها مــا يتعلق بكلام الإمام ابن عطية -هنا- وهو بيانٌ لمذهب قوم قالوا إن كلام الله تعالى صفة ذات فقط، فالقرآن -عندهم- كلام الله تعالى، لكنه معنىً قديمٌ قائم بذاته سبحانه فقط، والله -تعالى- يخلق في العبد إدراكاً يــدرك به ذلك الكلامَ القديم الذي تكلم الله به في الأزل، والقرآن الذي بين أيدينا هو عبارة عن كلام الله -تعــالى- القديم القائم بذاته لا كلامُ الله نفسه، لأن الله -عندهم- لا يتكلم بحرف وصوت[2]، وإنما كان الذي دعــاهم إلى هذا القول هو تنـــزيه الله عن أن يكون متكلماً بعد أن لم يكن كذلك.

ومذهب السلف أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلمــاً، ولا أن كلام الله تعالى -من حيث هو- حادث[3].

"والصواب الذي عليه سلف الأمة... هو أن القرآن جميعه كلام الله: حروفَه ومعانيه، ليس شيءٌ مــن ذلك كلاماً لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآن اسمــاً لمجــرد المعــنى[4] ولا لمجــرد الحــرف بــل لمجموعهما"[5].

وتوضيح الوجه الذي أورده الإمام ابن عطية -رحمه الله تعالى- هو: أنه لما كان القــرآن كــلام الله -تعالى- لكنه معنى قائم بذات الباري -سبحانه- معبر عنه بالعبارات والألفاظ، لما كان كذلك فيســتحيل إذا معرفةُ ما قام بذاته سبحانه، ولما كان مُتحدىً به أيضاً فإن المخاطبين كُلفوا ما لا يطيقون من التحــدي، إذ لا قِبَل لهم بمعرفة الكلام المتحدّى به حقيقةً، فصار بذلك معجزاً لهم.

فإذا عُلم ما قدمته أولاً من أن سبيل السلف يخالف هذا الذي قرروه من أن كلام الله -القرآن- معــنى قائم في ذاته عُبر عنه بألفاظ، إذا علم هذا بطل الاستدلال بذلك الوجه الذي أورده الإمام ابن عطيــة علــى الإعجاز.

---

(1) انظر في هذا "مجموع الفتاوى": 132/12-133.

(2) المصدر السابق: 120/12 ، 243.

(3) المصدر السابق: 173/12.

(4) أي كما هو قول القائلين بأنه معنى قائم بنفس الله فقط وليس صفة فعل.

(5) المصدر السابق: 244/12.

وقول ابن عطية رحمه الله تعالى عن هذا الوجه أنه يرى العجز فيه "مَن قد تقررت الشريعة ونبوة محمد ﷺ في نفسه، وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يُتحدى فيما يبين له بينه وبين نفسه عجزهُ عنه"[1] قوله هذا فيه ملحظان:

الأول: أنه يرى هذا المذهب ويعتقده، وقد ذكرت أن مذهب السلف خلافه.

الآخر: أن هذا الرد -الذي رد به الإمام ابن عطية ذلك الوجه المذكور- صالحٌ؛ وذلك لأن هذه المعاني المذكورة من الإعجاز دقيقة لا يقتنع بها إلا من كان مؤمناً عالماً بها، وذلك كله تنزلاً معه فيما ذهب إليه في ذلك الوجه، وإلا فإني قد ذكرت أن مذهب السلف خلافه، والله أعلم.

بيان الوجه الآخر:

أما الوجه الآخر، وهو الإعجاز بأخبار الغيب، فإنه رده بأمرين:

في المقدمة، وقد ذكرته قبلُ عند تقرير رد الوجه الأول: وهو أنه لا يرى العجز في هذا إلا من تقررت الشريعة ونبوة محمد ﷺ في نفسه.

وبأمر آخر في ثنايا الكتاب.

أما الأمر الأول: فلا أتفق معه فيما ذهب إليه؛ إذ إن أخبار الغيب في القرآن يتبين لكل مسلم عجزه عن أن يأتي بمثلها، فلا أدري وجهاً لكلامه هذا، والله أعلم.

وأما الأمر الآخر:

فقد ذكره في ثنايا الكتاب، إذ جاء به في أثناء تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

فقال رحمه الله تعالى:

"واختلف المتأولون على من يعود الضمير في قوله ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ ، فقال جمهور العلماء: هو عائدٌ على القرآن[3]، ثم اختلفوا، فقال الأكثر: من مثل نظمه ورصفه وفصاحة معانيه التي يعرفونها، ولا يعجزهم إلا التأليف[4] الذي خُص به القرآن، وبه وقع الإعجاز على قول حذّاق أهل النظر.

وقال بعضهم: من مثله في غيوبه وصدقه وقِدَمه، فالتحدي عند هؤلاء وقع بالقِدم، والأول أبين"[5].

وقال عند قوله تعالى:

---

(1) "المحرر الوجيز": 38/1.

(2) سورة البقرة: آية 23.

(3) والقول الآخر هو عَوْده على النبي ﷺ وانظر في هذا: "البحر المحيط": 104/1-105، و"روح المعاني": 194/1-195.

(4) أي النظم.

(5) "المحرر الوجيز": 143/1-144.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (1).

"والتحدي في هذه الآية وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن: إحداهما: النظم والرصف والإيجاز والجزالة ... والأخرى: المعاني من الغيب لما مضى ولما يُستقبل.

وحين تحداهم بعشر مفتريات إنما تحداهم بالنظم وحده(2).

قال القاضي أبو محمد(3):

هكذا قول جماعة من المتكلمين، وفيه -عندي- نظر، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب رداً على قولهم: ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ ؟ وما وقع التحدي في الآيتين: هذه وآية العشر السور إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق، وما أُلزموا قطُّ إتياناً بغيب، لأن التحدي بالإعلام بالغيوب كقوله: ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (4) ... ونحو ذلك من غيوب القرآن فبيّن أن البشر مقصر على ذلك(5).

وعلى هذا فإن الإعجاز عند ابن عطية إنما هو بالنظم والرَّصْف والجزالة والفصاحة، أما أخبار الغيب فإنه لا يرى الإعجاز بها.

ويبدو لي -مما نقلته عن ابن عطية آنفاً- أن الإمام لم يردَّ أخبار الغيب على أنها وجهٌ من أوجه الإعجاز إلا إذا ادُّعي انفرادها بالدلالة على الإعجاز، أما إذا عُدّت وجهاً من أوجه الإعجاز مع البلاغة والنظم فإني لا أحد من كلامه رداً لها ولا قبولاً.

ولا أعلم أحداً ممن تكلم في الإعجاز ارتضى أخبار الغيب في القرآن على أنها وجه الإعجاز الوحيد إلا ما جرى من النظّام حيث قال:

"الأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثه فيهم"(6).

تفصيل القول في الإعجاز بأخبار الغيوب:

أخبار الغيب في القرآن الكريم تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

1. الغيب الماضي، وهو قصُّ أخبار المتقدمين على الوجه الذي لا يكاد يعرفه أحد وإن عرفه فليس كتفصيل القرآنِ الكلامَ عليه، قال تعالى بعد تفصيل قصة نوح عليه الصلاة والسلام:

---

(1) سورة يونس: آية 38.

(2) لأنه تحداهم في قوله ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ بأن يأتوا بمثلها في النظم والرصف والجزالة لا الأخبار الصادقة لأن قوله: ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ يعني هاتوا مثلها ولو كان ما فيها مخترعاً لكنها تشابهها في الجزالة والنظم.

(3) أي ابن عطية نفسه رحمه الله.

(4) سورة الروم: آية 3.

(5) "المحرر الوجيز: 9/44-46.

(6) "مقالات الإسلاميين": 225، و"فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة": 70.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [1].

2. الغيب المستقبل، وهو منقسم إلى قسمين:

أ. غيب قريب موعود بتحققه وقد تحقق، كغلبة الروم الفرسَ، وفتحِ المسلمين مكةَ، والإخبار بموت أبي لهب[2] كافراً.

ب. وغيب بعيد لم يتحقق بعد، وذلك نحو بعض أشراط الساعة كالدابة، والدخان، والكوارث الكونية يوم القيامة.

3. والغيب الحاضر كالحديث عن الأشياء التي غيّبت عن أبصارنا كالدار الآخرة وما فيها من جنة ونار وملائكة إلخ...

أو الإخبار عن ضمائر الناس كاليهود حيث أخبر القرآن عنهم أنهم لا يتمنون الموت: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾، ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ ﴾ [3].

وقد أورد عدد من الائمة أخبار الغيب في القرآن وجهاً أو وجوهاً من أوجه الإعجاز[4]، ورد ذلك آخرون[5].

وقد كنت أميل إلى عدم قبول أخبار الغيب في القرآن على أنها من أوجه الإعجاز وإنما هي دلائل على صدق هذا الكتاب العظيم، وأنه من عند الله تعالى -قطعاً- وقد جنحتُ إلى هذا الرأي لأسباب هي:

1. ليست كلُّ آيات القرآن العظيم تحوي أخبارَ الغيب، وقد أعجز الله الخلقَ بالقرآن كله قليلِه وكثيره[6].

2. كثير ممن سمع بأخبار الغيب المستقبلة مات قبل أن تقع هذه الأخبارُ وتتحقق، وأعني بتلك الأخبار أخبار الغيب القريب الذي تحقق زمان النبي ﷺ وأخبارَ الغيب المستقبل البعيد التي لم تتحقق حتى الآن، فكيف يقع الإعجاز بالتحدي بشيء لم يتأكد وقوعه، ولم يره المعاند الجاحد بعد، فينقطع دونه ويعجزَ، وإنما

---

(1) سورة هود: آية 49.

(2) هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم. عم رسول الله ﷺ. توفي بعد بدر بليال بقرحة قاتلة كالطاعون، وكان قد اغتم لما أصاب قومه. انظر "التبيين في أنساب القرشيين": 76، و"سيرة ابن هشام": 1/646-674.

وإنما قلت وجوهاً باعتبار ما ينقسم إليه الإعجاز بالأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلة كما سبق تفصيله.

(3) سورة البقرة: آية 95، وسورة الجمعة: آية 7.

(4) كالحافظ البيهقي في "الاعتقاد": 259، والقاضي عياض في "الشفا": 1/375، والإمام الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن": 35، وآخرين.

وإنما قلت وجوهاً باعتبار ما ينقسم إليه الإعجاز بالأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلة كما سبق تفصيله.

(5) وممن رده الإمام ابن عطية في "المحرر الوجيز": 1/38، 143- 144، والإمام الزركشي في "البرهان": 2/95-96، والإمام يحيى ابن حمزة العلوي في "الطراز": 3/398، وآخرون.

ولعل معظم الذين ردوه إنما صنعوا ذلك حين القول بتفرده وجهاً للإعجاز، أما حين اشتراكه مع غيره فإن مقتضى كلامهم قبوله، وانظر الصفحات: 131-133، 140-141، 205.

(6) انظر "البرهان في علوم القرآن": 2/96.

يقع التحدي بأمر يقع أمام أنظار الجاحدين ويُلقى على أسماعهم، لا على أمر موعود بتحققه؟ لم يـره ولـن يدركه كثير منهم فيعرفوا صدقة من كذبه.

3. لم يصلنا أن الرسول ﷺ تحداهم بأن يأتوا بمثل أخبار الغيب في القرآن، ولا أعجزهم بها.

لتلك الأسبابِ مجتمعةً لم أكن أعتقد أن أخبار الغيب في القرآن العظيم تعد من أوجه إعجازه.

لكني رأيت كلاماً مفيداً للإمام الخطّابي يجمع بين الرأيين (المثبت والنافي) حيث قال:

"وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان... ولا يُشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزةً بنفسها"[1].

وقد ذكر الإمام الزركشي[2] رحمه الله تعالى كلاماً مشابهاً، حيث قال عن الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة:

"ورُد هذا القول بأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها بذلك لا إعجاز فيها وهو باطل، فقد جعل الله كل سورة معجزةً بنفسها"[3].

ثم قال عن الإعجاز بقصص الغيب المتقدمة، وهو الشاهد هنا:

"وهو مردود بما سبق[4]، نعم هذا والذي قبله من أنواع الإعجاز إلا أنه منحصر فيه"[5].

أي أن الإعجاز ثابت فقط في الآيات المخبرة عن الغيوب لا فيما سواها من آيات تخلو من أخبار الغيب؛ إذِ الإعجاز فيها متحقق بشيء آخر.

إذاً القول الذي أختاره هو الإعجاز بأخبار الغيب إعجاز جزئي لا كليّ؛ إذ ليس واقعاً في كل آية في كتاب الله -تعالى- وقد تخلو بعض السور القصار منه، فصار الإعجاز خاصاً بالآيات التي وردت فيها أخبار الغيب فقط، والآيات التي تخلو من أخبار الغيب فإن وجه الإعجاز فيها قائم من جهة البلاغة والفصاحة والنظم.

أما الإجابة على ما أوردته من أسباب آنفاً لعدم اعتدادي -أولاً- بأخبار الغيب المستقبلة وجهاً من أوجه الإعجاز فقد أجبت على الأول منها بأن الإعجاز فيها ليس إعجازاً كلياً وإنما ينحصر في آيات الغيوب فقط.

---

(1) "بيان إعجاز القرآن": ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن": 23-24.

(2) هو الشيخ محمد بن بهادُر بن عبد الله التركي الأصل، المصري، بدر الدين الزركشيّ. ولد سنة 745، وعُني بالاشتغال من صغره فحفظ كتباً. أخذ عنه عدة مشايخ، وكان منقطعاً لا يتردد إلى أحد. توفي بالقاهرة سنة 794. انظر "الدرر الكامنة": 4/17-18.

(3) "البرهان": 2/96.

(4) أي مردود بما رُدت به دعوى الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة.

(5) المصدر السابق.

وأما الثاني: وهو عدم إدراك كثير من المعاندين الجاحدين تحققَ أخبار الغيب، ومـوقمم قبـل وقوعـه، فالإجابة عليه تكون بأن الإعجاز قائم بأخبار الغيب الماضية والحاضرة، وهذا كاف للتصديق بالمستقبلة منـها والإيمان بأنها معجزة، وينضم إلى ذلك أنواع الإعجاز المتفق عليها في القرآن كالإعجاز بنظم القرآن وفصـاحة ألفاظه وجزالة معانيه، وينضم إلى ذلك أيضاً ما رآه الجاحدون المنكرون من معجزات حسية كثيرة جرت على يديه الشريفتين ﷺ فمن لم يُسلّم بذلك كله فإنه لن يسلم بإعجاز الأخبار الغيبية المستقبلة حتى لـو أدركهـا ورآها، فأخبار الغيب المستقبلة معجزة بدليل خارجي لا ذاتي، والله أعلم.

وأما الثالث وهو أنه لم يصلنا أن النبي ﷺ، تحداهم بهذه الأخبار الغيبية فيمكن ردُّه بأن الله تعالى قـال: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾[1]، فالمثلية المطلوبة كما أنها تقتضي المشابهة لنظمه وأسلوبه فهي تقتضي المشـابهة لغيوبه أيضاً، فأخبار الغيب إذاً متحدىً بها، وهي معجزة.

وبهذا التفصيل لأخبار الغيب ينتهي الكلام على أوجه الإعجاز عند الإمام ابن عطية الذي ارتضى منها الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم كما مرّ.

المبحث الخامس: جهود المؤلفين في علوم القرآن العظيم

قد أفرد بعض العلماء كتباً مصنفة في علوم القرآن، وقد برز هذا منذ القرن السادس الهجري، وكتب في هذه العلوم كتب كثيرة، كان بعضها متميزاً متفرداً عن سائر الكتب، وكان بعضها الآخر عالة علـى غـيره، ومن الكتب المتميزة التي صُنفت في علوم القرآن ثم صارت تميزها مصدراً أساساً كتابان أحدهما قديم والآخـر حديث معاصر، أما القديم فهو كتاب "البرهان في علوم القرآن" للإمام الزركشي رحمه الله تعالى، وأما الآخـر فهو كتاب "مناهل العرفان في علوم القرآن": للزرقاني[2] رحمه الله تعالى.

أما كتاب الإمام الزركشي فأقول فيه، والله تعالى أعلم:

كتاب جليل القدر، حيث إنّه مؤلَّف واسع، متنوع المباحث في علوم القرآن، فلم يؤلف قبله مثلُه –فيما نعلم– ضمنه المصنف أنواعاً كثيرة من علوم القرآن بضبط وتحرير وتحقيق، ذكر منها "معرفة إعجـازه" وهـو النوع الثامن والثلاثون من الأنواع التي ذكرها في كتابه[3].

وقد جاءت مباحث الإعجاز عند الزركشيّ –رحمه الله– حافلةً بالفصول والمسائل، متنوعةً في طَرْقها هذا الموضوعَ المهم؛ فقد ابتدأ بمقدمة ذكر فيها أهمية معرفة علم الإعجاز القرآني، وبعضَ من صنف فيـه مـن الأئمة، ثم ذكر آيات التحدي في كتاب الله –تبارك وتعالى– وناقش بعض كلام الأئمة فيها.

---

(1) سورة الطور: آية 34.

(2) محمد عبد العظيم الزرقاني: من علماء الأزهر بمصر وعضو هيئة كبار العلماء. تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسـاً لعلـوم القـرآن والحديث. وتوفي بالقاهرة سنة 1948/1367 رحمه الله تعالى. من أهم كتبه "مناهل العرفان في علوم القرآن". انظر "الأعلام": 210/6.

(3) "البرهان": 2/90-124.

ثم ذكر وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وهي:

1. إحداها: وهو قول النظّام:

إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم، وكان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمرٌ خارجيّ فصار كسائر المعجزات، وهو قول فاسد..." [1] ثم شرع في رده.

2. "وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف، وهو بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزِنةً، وعلت مركباته معنىً"[2].

وهذا راجع إلى الإعجاز النظميّ والبلاغيّ، وقوله: "لا مطلق التأليف" أي مجرد صف الحروف لتكون كلمات فإن هذا يحسنه كل متكلم عاقل.

3. "ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة".

وقد ردّ هذا الوجه بقوله:

"ورُدّ هذا القول بأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها بذلك لا إعجاز فيها، وهو باطل، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها"[3].

وقد بينت في موضع سابق أن الإعجاز هنا إعجاز جزئيّ لا كلي، بمعنى أنه موجود في كثير من الآيات لا كلها[4].

4. "ما تضمن من إخباره عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكايةَ من شاهدها وحضرها"[5].

وقد علق على هذا بقوله:

"وهو مردود بما سبق[6]، نعم هذا والذي قبله من أنواع الإعجاز إلا أنه غير منحصر فيه".

أي أن الإعجاز ثابت فقط في الآيات المخبرة عن الغيوب لا فيما سواها من آيات.

5. "إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله:

﴿إِذْ هَمَّت طَّآيِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [7]... وكإخباره عن اليهود أنهم لا يتمنون الموت أبداً"[8].

---

(1) المصدر السابق: 2/93-94.

(2) المصدر السابق: 2/95.

(3) المصدر السابق: 2/95-96.

(4) انظر هذا المبحث ص: 45.

(5) "البرهان في علوم القرآن": 2/96.

(6) أي بما رُدّ به الوجه السابق.

(7) سورة آل عمران: آية 122.

(8) "البرهان": 2/96.

ثم إنه لم يتكلم على هذا الوجه قَبولاً أو رداً، وهذا الوجه حُكمه حكم الوجهين السابقين عليه، والله أعلم، باعتباره إخباراً عن الغيب الحاضر وقت النزول فتجتمع بهذه الوجوهِ الثلاثة الأزمنةُ الثلاثة، وقد أحسن من جعلها جميعاً وجهاً واحداً وهو الإخبار بالغيب مطلقاً سواء كان الغيب الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

6. "السادس، وصححه ابن عطية وقال:

إنه الذي عليه الجمهور والحُذاق، وهو الصحيح في نفسه، أن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه.." [1].

وهذا الوجه لامِرية في إعجازه، وهو شامل للوجه الثاني المذكور سابقاً.

7. "وجه الإعجاز الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب"[2].

وقد ذكر أنه قريب من الوجه السابق، وهو كما قال، رحمه الله تعالى، إلا أن الوجه السابق أعم منه حيث أشار فيه إلى الإعجاز النظميّ.

وفي هذا الوجه زيادة احتياط باشتراطه -نصاً- السلامة من العيوب، بخلاف السابق فإنه يتضمن ذلك فقط.

8. "ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم..." [3].

ولم يتعقب الزركشي -رحمه الله- هذا القولَ الذي نسبه لبعض الأئمة، والحق أن هذا القول لا يخرج عن الوجهين الثاني والسادس؛ إذ الوجه الثاني يشمل الإعجاز النظمي، والوجه السادس ذكر فيه الإعجاز بالنظم أيضاً.

9. "أنه شيء لا يمكن التعبير عنه".

ونقل الأقوال التي تذهب إلى أن "الإعجاز يُدرك ولا يمكن وصفه"، وأنه "ليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه"[4].

وهذا الوجه ليس وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز، وذلك لأن الإعجاز دليل الرسالة، ولا يمكن أن ينبني الدليل على مطلق الإدراك من غير تحديد لشيء معين يُعرف به وجهُ الإعجاز، ولكن يمكن أن يكون ما ذكره أثراً من آثار الإعجاز أو لازماً من لوازمه؛ وذلك كالروعة والدهشة الحاصلةِ لسامعه الفاهم لمعانيه.

10. إن الإعجاز فيه من حيث استمرّت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا توجد له فترة[1]، ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومَن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة

(1) المصدر السابق: 2/97-98.

(2) "البرهان": 2/96.

(3) "البرهان": 2/98-100.

(4) المصدر السابق: 2/100.

والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرِض الفَتَرات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه..." [2].

وقد نسَب هذا القول لحازم[3] في "منهاج البلغاء"[4].

وهذا الوجه داخل في الوجه السادس المذكور آنفاً وهو أن الإعجاز وقع "بنظمه، وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه"[5] لكن هذا الوجه وقع فيه تفصيل ما أوجز ذكره في الوجه السادس.

وقد ذكر الزركشي نفسه -رحمه الله تعالى- أن هذا القولَ قريب مما ذكره ابن عطية، الذي هو صاحب القول السادس المذكور آنفاً.

11. "القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مُضمناً أصحَّ المعاني من توحيد الله وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته... وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجرٍ عن مساويها..." [6].

وقد نسب هذا الوجه للخطابي[7] في تقرير طويل لا يسعني الإتيان به لطوله، وذاك هو خلاصته.

وهذا الوجه لا أرى فرقاً كبيراً بينه وبين الوجه السادس الذي قرّر فيه أن الإعجاز إنما "وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه"[8]، فالكلام في الوجهين: السادس والحادي عشر متشابه إلا أن الوجه الحادي عشر وقع فيه تفصيل وإيضاح لما أُوجز ذكرُه في الوجه السادس.

12. "وهو قول أهل التحقيق: أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد على انفراده، فإنه جمع كله[9] فلا معنى لنسبته[10] إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق"[11].

---

(1) الفترة: الانقطاع والضعف. انظر "لسان العرب": ف ت ر.

(2) "البرهان": 101/2.

(3) أبو الحسن حازم بن محمد القُرطاجَنّي، ولد سنة 608. نحويّ، ناظم، ناثر، وله عدة تصانيف، ارتحل من الأندلس واستقر في بلاد المغرب، وتوفي في سنة 684 بتونس. انظر "نفح الطيب": 340/3-345.

(4) هذا النص الذي نقله الزركشي لحازم هو من القسم الأول المفقود لكتاب "منهاج البلغاء" لحازم، انظر "منهاج البلغاء": 389-390 مع صفحة 93-95 من الكتاب نفسه.

(5) "البرهان": 97/2.

(6) المصدر السابق: 103/2.

(7) كلام الخطابي هذا هو في كتابه: "بيان إعجاز القرآن" ضمن "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن": ص 27.

(8) "البرهان": 97/2.

(9) أي هذا الوجه جمع جميع الأوجه السابقة.

(10) أي الإعجاز.

(11) "البرهان": 106/2.

ولا أدري كيف يستقيم هذا القول وفي الأوجه المذكورة آنفاً القولُ بــ "الصَّرفة"، وفيها ما ردّه الشيخ نفسه مثل الوجهين الثالث والرابع، إلا إذا قصد الشيخ "بجميع ما سبق من الأقوال" الأقوال المقبولة فقط، وهذا وجه صحيحٌ إذاً، يجمع الأقوال المتفرقة، ويقوي معنى الإعجاز لاجتماع المعاني فيه، والله أعلم.

ثم إن الشيخ الزركشي -رحمه الله تعالى- عاد إلى ذكر خمسة أوجه عدّها من الإعجاز، وهي:

13. "الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعِهم"[1].

وهذا الوجه أثر من آثار الإعجاز، وليس هو إعجازاً، كالناظر لشيء متقن الصَّنعة فإنه يُعجب به ويدهش من جماله وإتقانه، فليس هذا الإعجاب والدهشة هو ذاتَ الإتقان فيه وإنما هو أثر من آثار الإتقان، والإتقان هو ما فيه من إحكام الصَّنعة ودقتها، وليراجع الكلام على الوجه التاسع.

14. أنه لم يزل غضاً طرياً في أسماع السامعين، وعلى ألسنة القارئين"[2].

وهذا الوجه -عندي- كسابقه أيضاً؛ إذ لم يكن القرآن كذلك إلا لأنه معجز في نظمه، فصيح في ألفاظه، جَزلٌ في معانيه، وما يلحق السامعين لهذا الكلام العظيم إنما هو أثر لذلك النظم العالي والبلاغة المتناهية في الحسن، والله أعلم.

15. "ومنها ما ينتشر فيه عند تلاوته من إنزال الله إيّاه في صورة كلام هو مخاطبةٌ من الله لرسوله تارةً ومخاطبة أخرى لخلقه، لا في صورة كلام يستمليه مِن نفسه مَن قد قذف في قلبه وأوحى إليه ما شاء أن يلقيه إلى عباده على لسانه، فهو يأتي بالمعاني التي أُلهمها بألفاظه التي يكسوها إياه، كما يشاهد من الكتب المتقدمة"[3].

كلام الزركشيّ هنا يلفّه الغموض لكثرة إتيانه بالضمائر التي قد يصعب معرفة مرجعها، ولكني فهمت من كلامه أنه يريد أن يفرّق بين القرآن العظيم وبين غيره من الكتب المتقدمة بأن القرآن كلام الله لفظاً ومعنى بينما سائر الكتب السماوية ليست كذلك بل المعنى من الله واللفظ من الموحَى إليه، ولكن يُعكّر على مذهبه هذا بأنه -إذا قصد هذا المعنى- لم يورد دليلاً على قوله هذا خاصة أن الله، تعالى آتى نبيه موسى عليه الصلاة والسلام التوراة في ألواح قال عنها سبحانه:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[4].

فكلام الله إذاً كُتب في ألواح فهو لفظاً ومعنى من الله تعالى.

ولعله يقصد تراجم هذه الكتب التي قرأها باللغة العربية؛ فإن ألفاظها -أحياناً- تكون ركيكة يبدو عليها أنها من أساليب البشر، والمعنى الأول أقرب إلى لفظه المذكور، والله أعلم.

---

(1) المصدر السابق: 106/2.
(2) "البرهان": 107/2.
(3) المصدر السابق.
(4) سورة الأعراف: آية 145.

وعلى كل حال فهذا الوجه ليس من الإعجاز -بهذا المعنى الذي فهمته- بل هو خصوصية خصّ الله -تعالى- بها هذا الكتاب العظيم، إن ثبت أنه منفرد بأنه لفظاً ومعنى من الله، والله أعلم.

16. "ومنها جمعه بين صفتي الجزالةِ والعذوبة، وهما كالمتضادين لا يجتمعان -غالباً- في كلام البشر؛ لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة... وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز"[1].

وهذا الوجه داخل في الوجه السادس ولكنه أدخلُ منه في تفصيل بعض نواحي البلاغة والفصاحة في القرآن العظيم، والله أعلم.

17. "ومنها جعلُه آخر الكتب، غنياً عن غيره، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يُرجع فيه إليه، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

وهذا ليس إلا خصوصيةٌ خُصّ بها هذا الكتاب العظيم، وليس هو من أوجه الإعجاز، والله أعلم.

ثم إن الزركشي -رحمه الله تعالى- عقد مباحث متنوعة في الإعجاز فمنها: بيان قدر المعجز من القرآن[3].

ومنها: بيان ترتيب نزول آيات التحدي[4].

ومنها: أن التحدي وقع للإنس دون الجن[5].

ومنها: أن الإعجاز القرآني معلوم ضرورةً[6].

ومنها: الحكمة في تنزيه النبي ﷺ عن الشعر[7].

ومنها: تنزيه الله القرآنَ عن أن يكون شعراً[8].

ولم يذكر الزركشيّ -رحمه الله تعالى- الصلةَ بين المبحثين الأخيرين وبين الإعجاز، وبينهما نوع تعلّق، إذِ الشعر أروع وأجمل كلام العرب، ومع ذلك جاء القرآن الكريم على لون جديد من الكلام يفوق الشعر والنثر جميعاً، وهذا هو معنى الإعجاز.

ومنها قوله:

---

(1) "البرهان": 107/2.
(2) "البرهان": 107/2، سورة النمل: آية 76.
(3) المصدر السابق: 108/2-109.
(4) المصدر السابق: 110/2.
(5) المصدر السابق: 111/2.
(6) المصدر السابق: 111/2-112.
(7) المصدر السابق: 112/2-113، والمعنى: تنزيه النبي ﷺ عن إنشاء الشعر.
(8) المصدر السابق: 113/2-117.

"مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلافاتُ المقامات وذكرٌ في كل موضع ما يلائمه، ووضع الألفاظ في كل موضعٍ ما يليق به، وإن كانت مترادفة، حتى لو أُبدل واحدٌ منها بالآخر ذهبت تلك الطّلاوة[1]، وفاتت تلك الحلاوة، فمن ذلك أن لفظ ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ لم ترد في التنزيل إلا مفردةً، ولما أُريد الإتيان بها مجموعة قال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [2] تفادياً من جمعها... [3].

ومن المباحث في الإعجاز ما ذكره من: اشتمال القرآن على أعلى أنواع الإعجاز، حيث ذكر أن في القرآن من الألفاظ ما هو فصيح، وفيه ما هو أفصح[4] وكلاهما يبلغ الغاية العليا في بابه.

وبهذا ختم الزركشي مباحث الإعجاز، وهي مباحث جليلة القدر، كأن الزركشي، رحمه الله تعالى، انفرد بإيرادها من بين كتب علوم القرآن -فيما أعلم- والله أعلم.

وهو قد أورد سبعة عشر وجهاً للإعجاز تتلخص في الآتي:

1. الإعجاز بـ "الصَّرفة" وقد ردّه.
2. الإعجاز النظمي والبلاغي.
3. الإعجاز بأخبار الغيب.
4. أمرٌ لا يستطاع التعبير عنه.
5. الإعجاز بجميع ما سبق.
6. الروعة والتأثير في القلوب.

ونلحظ في هذه الأوجه أنه ليس فيها شيء جديد لم يقل به إمام متقدم، وإنما كلها مستفادة عن غيره ممن سبقه، لكنه فصّل في بعضها، وساق معها مباحث متنوعة عن الإعجاز أو ذات تعلق به بوجه من الوجوه، والله أعلم.

وأما كتاب الأستاذ الزرقاني فأقول فيه، والله تعالى أعلم:

هذا الكتاب -كما هو ظاهر من عنوانه- مصنف في علوم قرآنية شتى لكنّ إعجاز القرآن وخصائص أسلوبه قد استغرق الكثير من حجم الكتاب[5]، وقد جاء هذا الكتاب جامعاً محاضراتٍ سبق أن ألقاها المصنف المصنف الكريم على طلبته.

وقد قسم المصنف بحثه في الإعجاز إلى قسمين رئيسين:

1. وجوه إعجاز القرآن، وبيّن في صدرها معنى "إعجاز القرآن".

---

(1) الطلاوة: الحسن والبهجة والقبول والرونق: "لسان العرب": ط ل ى.
(2) سورة الطلاق: آية 12.
(3) "البرهان في علوم القرآن": 2/118-120.
(4) "البرهان في علوم القرآن": 2/121-124.
(5) "مناهل العرفان": 2/198-333.

2. شبهات واردة على هذا الإعجاز.

أما وجوه الإعجاز التي أتى بها فهي أربعة عشر وجهاً[1] أُجمل ذكرها بالآتي:

الوجه الأول: لغته وأسلوبه[2]:

قد ضمن هذا الوجه عدة مباحث وهي: القَدْر المعجز من القرآن، ومعارضة القرآن قديماً وحديثاً، وكثرة معجزات القرآن، وخلود هذه المعجزات، وحكمة اختيار اللغة العربية لغةً لهذا القرآن العظيم، وختم بالفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي.

وهذا الوجه متعلق بمبحث أسلوب القرآن الكريم وهو المبحث السابق على مبحث الإعجاز، ولا أدري لِم لم يضمه المصنف -رحمه الله تعالى- إلى ذلك الوجه، ففي كثير من مباحثه تعلقٌ به.

الوجه الثاني: طريقة تأليفه[3]:

أي أن القرآن محكم التأليف والرصف مع أنه قد نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة، والبشر يُعجزهم أن يصنفوا كلاماً مترابطاً ترابط القرآن العظيم قد قيل في مناسبات مختلفة على أزمان متباعدة؛ ولو كان هذا الكلام كلام النبي ﷺ.

الوجه الثالث: علومه ومعارفه[4]:

ويقصد بهذا ما في القرآن من علوم هدت البشر إلى الحق في دينهم ودنياهم، وجمعت بين مطالب الروح ومطالب الجسد، واجتزأ من تلك العلوم والمعارف موضوعَ العقيدة في الله حيث عرض لعقيدة المسلمين وكيف جاءت في كتاب الله -تعالى- واضحة سهلة، وكيف رد القرآن على عقائد أهل الكتاب المحرفة.

ووجه الإعجاز هنا أن القرآن "اشتمل على علوم ومعارف في هداية الخلق إلى الحق، بلغت من نبالة القصد، ونصاعة الحجة، وحسن الأثر وعموم النفع، مبلغاً يستحيل على محمد -وهو رجل نشأ بين الأميين- أن يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعاً من علماء وأدباء وفلاسفة ومشترعين وأخلاقيين أن يأتوا من تلقاء أنفسهم بمثلها"[5].

الوجه الرابع: وفاؤه بحاجات البشر[6]:

وحاجات البشر التي وفى بها القرآن هي: إصلاح العقائد والعبادات والأخلاق والاجتماع والسياسة والمال ...إلخ.

---

(1) المصدر السابق: 2/228-310.
(2) المصدر السابق: 2/228-236.
(3) "مناهل العرفان": 2/236-238.
(4) المصدر السابق: 2/238-245.
(5) المصدر السابق: 2/238.
(6) المصدر السابق: 2/247-249.

الوجه الخامس: موقف القرآن من العلوم الكونية[1]:

وقد جاء في هذا الوجهِ بمباحثَ متنوعةٍ في طريقة القرآن في ذكر المعارف والعلوم.

الوجه السادس: سياسته في الإصلاح[2]:

أي في إصلاح المؤمنين بهذا الكتابِ العظيم، وحملِهم على اتباع الخير والهدى، ومن سياسته التـدرج في تطبيق الأحكام الشرعية، ومخاطبة العقول والأفكار، وتلبية مطالب الروح والجسد ... إلخ.

الوجه السابع: أنباء الغيب[3]:

ويقصد بهذا الوجهِ أنباء الغيب الماضي والحاضر من جنة ونار وملائكة وغيرها، وأنباء الغيب المستقبلي القريب منه والبعيد.

وقد أفرد مبحثاً في هذا الوجهِ يتعلق بما ذكره القرآن واكتشفت فائدته بعد ذكر القرآن له بمئات السنين أمثال فائدة الصوم، وفائدة آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[4] ومدخلـها في علـم الاجتماع ... إلخ.

الوجه الثامن: آيات عتاب المصطفى ﷺ[5]:

ووجه الإعجاز فيها هو أن النبي ﷺ لو كان مؤلفاً لهذا القرآنِ العظيم لما سجل على نفسه مثـل هـذا العتاب.

الوجه التاسع: ما نـزل بعد طول انتظار[6]:

"ومعنى هذا أن في القرآن آياتٍ كثيرة تناولت مهمات الأمور ومع ذلك لم تنـزل إلا بعد تلبث وطول انتظار فدل هذا على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد؛ لأنه لو كان كلام محمـد مـا كـان معـنى لهـذا الانتظار"[7]، وضرب أمثلة على هذا منها قصةُ الإفك.

الوجه العاشر: مظهر النبي ﷺ عند هبوط الوحي عليه[8]:

وهو ما كان يعتريه –عليه الصلاة والسلام– من تغير وثِقَل حال نزول الوحي فدل على أن هذا القرآنَ ليس من عنده.

الحادي عشر آية المباهلة[1]:

---

(1) المصدر السابق: 2/249–257.
(2) "مناهل العرفان": 2/257–262.
(3) المصدر السابق: 263–285.
(4) سورة الرعد: آية 11.
(5) "مناهل العرفان": 2/285–291.
(6) المصدر السابق: 2/291–295
(7) المصدر السابق: 2/291.
(8) المصدر السابق: 2/295–296.

ويعني بها ما جاء في سورة آل عمران من قوله تعـــالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[2].

وهذه الآية نـــزلت في وفد نصارى نجران عندما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة[3].

وهذه المباهلة تدل على ثقة النبي ﷺ بربه، وأن هذا القرآن كلام الله القادر على إنـــزال اللعنة والعذاب على الكاذب.

الوجه الثاني عشر: عجز الرسول عن الإتيان ببدل له[4]:

أي القرآنِ، ويريد المصنف ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ﴾[5].

ورسول الله ﷺ لم يأت ببدل لهذا القرآنِ لأنه ليس كلامَه وهو خارج عن طوقه وقدرته.

الوجه الثالث عشر: الآيات التي تجرد الرسول من نسبته إليه[6]:

أي من نسبة القرآن إلى الرسول ﷺ، وذلك نحـــو قولـــه تعـــالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[7] فلو كان القرآن من إنشائه لما تنصل من نسبته إليه على هذا النحـــوِ بل كان سيفخر به ويعلو.

الوجه الرابع عشر: تأثير القرآن ونجاحه[8]:

ويعني به تأثير القرآن في المسلمين وغيرهم على السواء، وكيف أحب المسلمون هذا القـــرآن العظـــيم فبذلوا مهجهم في سبيل العمل به وتنفيذ تعاليمه.

ثم ختم الحديث عن أوجه الإعجاز بذكر بعض أوجه للإعجاز قد ذكرها مَن سبقه من المصنفين لكنـــه لم يرتض إلا قليلاً منها[9].

---

(1) المصدر السابق: 296/2-297، والمباهلة هي "أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا"، والبَهْل: اللعن، وانظر "لسان العرب": ب هـــ ل.

(2) سورة آل عمران: آية 61.

(3) انظر "تفسير القرآن العظيم": 40/2-45.

(4) "مناهل العرفان": 297/2-298.

(5) سورة يونس: آية 15.

(6) "مناهل العرفان": 297/2-298.

(7) سورة القصص: آية 86.

(8) "مناهل العرفان": 301/2-308.

(9) المصدر السابق: 308/2 وما بعدها.

أما الأوجه الأربعة عشر التي ساقها أوجهاً للإعجاز فإن بعضها لا يصح أن يكون كذلك؛ إذ آيات عتاب المصطفى ﷺ لا مدخل لها في الإعجاز، وكذلك ما نزل بعد طول انتظار.

ومظهر النبي ﷺ حال نزول الوحي عليه كل ذلك من البراهين الدالة على أن القرآن من عند الله – سبحانه وتعالى– لكن ليس لها تعلق مباشر بموضوع الإعجاز.

أما المباهلة فلا أرى لها تعلقاً بموضوع الإعجاز ألبتة.

وأما عجز الرسول عن الإتيان بمثله فلم يثبت لنا أن النبي ﷺ حاول هذا أو فكر فيه إنما أراد الله – سبحانه وتعالى– تلقين رسوله الحجة فيما إذا طلب منه الكافرون ذلك.

وكذلك الوجه الثالث عشر وهو الآيات التي تنفي نسبة القرآن إلى هذا النبيِ العظيم ﷺ لا أدري ما نسبته إلى الإعجاز وتعلقه به؛ إذ هو خبر من الأخبار المنبثة في هذا القرآن العظيم، وقد تعلق المصنف في هذا الوجهِ بأن القرآن على هذا ليس من كلام النبي ﷺ وهذا صحيح لكن لا مدخل له في الإعجاز، والله أعلم.

ثم إن المصنف أنهى مبحث الإعجاز بذكر بعض الشبهات الواردة على إعجاز القرآن وتفنيدها(1).

أما الجديد في كتاب "مناهل العرفان" فهو الآتي:

1. الوجه الرابع وهو "وفاؤه بحاجات البشر"؛ إذ أثبت المصنف بدلائلَ ماديةٍ حدثت في زمانه صلاحية القرآن العظيم لهذا الزمانِ ولكل زمان؛ ذلك لأن القرآن العظيم وضع أسساً لإصلاح العبادات والأخلاق والنواحي الاجتماعية والمالية والسياسية وغيرها منذ مئات السنين، وأنّ "غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور، وينقبون عما يفي بحاجتهم في كثير من نواحي حياتهم، حتى اضطروا تحت ضغط هذه الحاجةِ وبعد طول المطاف وقسوة التجارب أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لا يشعرون"(2).

ثم أتى على ذلك بشواهدَ منها تحريم أمريكا الخمرَ، وإباحتها الطلاق، ومطالبة بعض المصلحين الغربيين اعتماد مبدأ تعدد الزوجات، وغير ذلك.

وهذا الوجه الذي ذكره يندرج تحت الإعجاز التشريعي في القرآن.

2. في الوجه الخامس "موقف القرآن من العلوم الكونية" أتى المصنف، رحمه الله تعالى، بمباحثَ لطيفة جديدة في طريقة القرآن في ذكره لهذه العلوم؛ إذ إن القرآن العظيم:

أ. أجمل ذكر هذه العلوم فلم يذكر تفصيلاتها وإنما أشار إليها وذلك كي يفهم كل جيل منها ما يناسبه.

ب. دعا إلى النظر والبحث فيها من جملة ما دعا إليه من البحث والنظر في الكون.

---

(1) "مناهل العرفان": 310/2 وما بعدها.

(2) المصدر السابق: 248/2.

جـــ. تحدث عن هذه العلومِ تحدثَ إحاطة بها، فالله سبحانه عالم بأسرار السموات والأرض.

د. أشار إلى أن الكون كله مربوب له -سبحانه وتعالى- ومن جملته ما فيه من علوم وأسرار؛ فلا يليق بعد هذا إذاً أن نُخدع بعلم الكافرين الذين سجنوه في دائرة المادة الضيقة، ولا يليق أيضاً أن نحاكم المعـــارف العليا التي في القرآن إلى المعارف الدنيا التي عندهم.

ثم إن المصنف رحمه الله تعالى نقل كلام أحد العلماء المعاصرين له حيث عقد مقارنة بين نُفرة النصارى -بسبب تعاليم الكنيسة المحرفة- من العلم الكَنَسيّ وأهله وبين استقبال المسلمين الحسن لِما في القـــرآن مـــن معارفَ وعلوم[1].

وهذا الوجه الذي ساقه يندرج تحت الإعجاز العلمي في القرآن، وليس ما ساقه حديثاً عن العلوم بقدر ما هو إشارات إلى طريقة القرآن في ذكرها وبيانها.

3. إيراده منافعَ اكتشفها العلم الحديث في بعض ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعبـــاده، وإيـــراده بعض المسائل التاريخية والاجتماعية التي أثبت سبق القرآن في إيرادها وذكرها، وقد سمّى كل ذلك: "معجزات يكشف عنها العلم الحديث"[2]، وهذا الذي ساقه مندرج -أيضاً- تحت وجه الإعجاز العلمي والتشـــريعي في القرآن.

هذا ما جاء من مباحثَ جديدة في كتاب المصِّنف -رحمه الله تعالى- أما ما جاء فيه من مباحث قديمـــة عُرضت عرضاً جديداً شيقاً فشيء كثير، والكاتب يمتاز بسلاسة العرض وقوة الأســـلوب، ونصـــاعة الحجـــة والبرهان في كثير مما يورده، رحمه الله تعالى.

المبحث السادس: جهود لعلماء معاصرين لم يغلب عليهم التخصص في فن واحد

في العصر الحديث برز علماء كبار يصعب تصنيفهم في علوم محددة فقد برزوا في أكثر من علم، وكان على رأس هؤلاء الأستاذ الكبير محمد عبد الله دراز رحمه الله تعالى، وسأفرد هذا المبحث للحديث عن كتابـــه الجليل "النبأ العظيم"، فأقول -وبالله التوفيق-:

هذا الكتاب في الأصل مجموعة من المحاضرات كان الشيخ قد ألقاها على طلبته ثم نقّحها وجمعها في هذا الكتاب الجليل[3].

وقد قسم كتابه إلى بحثين:

1. تحديد القرآن:

ويقصد بالتحديد تعريف القرآن والفرق بينه وبين الأحاديث النبوية والقدسية[1].

---

(1) "مناهل العرفان": 2/249-257.

(2) المصدر السابق: 2/280-285.

(3) "النبأ العظيم": 7-9.

2. بيان مصدر القرآن وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه:

وهذا المبحث هو الذي استغرق جُلَّ الكتاب حيث قسّمه المصنف إلى مراحل:

المرحلة الأولى من البحث: بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاءً ذاتياً من نفس رسولنا محمد ﷺ[2].

وقد تفنن المصنف -رحمه الله تعالى- في هذا المبحثِ في إثبات أن القرآن العظيم لا يمكن أن يكون من كلام رسول الله ﷺ مخترَعاً مِن قِبَله، واستدل على ذلك بـ:

1) صِدق الرسول ﷺ وأمانته، وأنه لم يكن لِيذرَ الكذب على الناس ويكذب على الله.

2) "كانت تنزل به ﷺ نوازلُ من شأنها أن تُحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآناً يُتلى على الناس"[3]، وضرب مثلاً على ذلك بحادثة الإفك[4].

3) آيات العتاب التي كان يُعاتَبُ بها النبيُّ ﷺ بسبب خطأ يسير في اجتهاده في بعض الأمور، فلو كان القرآن من لدنه وحاشاه ﷺ، من هذا "ألم يكن له في السكوت عنها سترٌ على نفسه واستبقاءٌ لحرمة آرائه؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات..." [5].

ثم استمر -رحمه الله- في التدليل على أن هذا القرآن لابد أن يكون من عند الله -تبارك وتعالى- حتى آخر المبحث، ثم دلف إلى المرحلة الثانية من المبحث وهي:

وجوب أن يكون الرسول قد عُلّم هذا القرآن من لدن حكيم خبير[6].

وهذا المبحث -على الحقيقة- جزء لا يتجزأ من المبحث الذي قبله؛ فإذا لم يكنِ القرآن من كلامه ﷺ فهو من كلام الله، وهو المُعلِّم المقصود هنا سبحانه وتعالى.

وردّ المصنِّف في هذا المبحثِ على شبهات قديمة وجديدة في هذا الصدد؛ مثل القول بأن غلاماً رومياً في مكة كان يعلمه القرآن[7]، إلى القول بـ "الوحي النفسي"[1] من المستشرقين وأذنابهم، أي أن الرسول ﷺ اخترع القرآن من لدن نفسه وليس هو بوحي[2].

---

(1) المصدر السابق: 12-17.

(2) المصدر السابق: 20-25.

(3) المصدر السابق: 23-24.

(4) انظر تفصيلها في "تفسير القرآن العظيم" للإمام ابن كثير: 6/17-35.

(5) "النبأ العظيم": 25-26.

(6) المصدر السابق: 56-69.

(7) انظر القصة في تفسير ابن كثير: 4/524، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة النحل: آية 103).

ثم أخذ في بيان المرحلة الثالثة من بحثه وهي "الوحي"، وذكر حاله الشريف ﷺ حين كان الوحي يتنزّل عليه، وذكر الفرق بين هذه الأحوال وبين ما يمكن أن يقال وقد قيل من أن الذي كان يحصل له ﷺ نوع من المرض والاضطراب النفسي[3].

واستأنس لظاهرة الوحي بما يسمى "التنويم المغناطيسي"[4]، وعقد مقارنة بين التأثير الذي يفعله المنوِّم بالمنوَّم وبين التأثير المنطبع بالوحي القرآني، لكن الفرق أن الناس "قد يوحون زخرف القول غروراً، وكثيراً ما يترك وحيهم في نفس متلقيه أعراضاً عقلية أو بدنية يصعب علاجها، فأين هذا من الوحي بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته: رسول من الملائكة ورسول من الناس"[5].

أما المرحلة الرابعة فهي المقصودة هنا، وهي التي استغرقت باقي صفحات الكتاب[6]، ألا وهي إعجاز القرآن، وهو لم يطرق إعجاز القرآن كما طرقه كثير ممن سبقوه حيث بينوا وجوه الإعجاز وقارنوا بينها ورجحوا بعضها على بعض، لكنه ذكر وجهاً واحداً للإعجاز وهو الإعجاز اللغوي، وكان يريد ذكر الإعجاز العلمي والإعجاز الإصلاحي التهذيبي[7]، لكنه لم يفعل، ولعل ذلك مرده إلى أن الكتاب المطبوع هو الجزء الأول من "النبأ العظيم" فقط، والباقي لم يكمله الشيخ رحمه الله تعالى[8].

وابتدأ الشيخ رحمه الله تعالى بالإعجاز اللغوي لأنه هو الذي وقع من جهته التحدي في كل سورة من سور القرآن[9].

---

(1) الوحي النفسي: هو "الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية، وقد أثبته بعض علماء الفرنج لنبينا ﷺ كغيره فقالوا: إن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل والأدب السامي، وصوّره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم... بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولّدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية على مَخِيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى المَلَك ماثلاً له، وعلى سمعه فوعى ما حدث به.

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعيّ من خارج نفس النبي، نازلاً عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضاً منها كما يظنون ...": "الوحي المحمدي" للسيد محمد رشيد رضا: 83.

وإنما حدث لنبينا ﷺ ذلك الوحي النفسي بزعمهم لأن "منازع نفسه العالية، وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وتركِ ما سواها من عبادة وثنية، وتقاليد وراثية رديئة يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه، ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه مَلَك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة..." المصدر السابق: 119.

(2) انظر "النبأ العظيم": 67، و"مناهل العرفان": 1/74-75، 77-84.

(3) انظر -مثلاً- "مناهل العرفان": 1/74-75، و"النبأ العظيم": ص70 وما بعدها.

(4) التنويم المغناطيسي هو "حالة تأثيرية يظهر فيها النوم على الوسيط تأثراً بإيحاء المنوِّم وتوجيهه إياه إلى الفكرة المقصودة، ويكون الوسيط في أثنائها خاليَ الذهن من هذه الفكرة": "المعجم الوسيط": 2/1003.

(5) "النبأ العظيم": 75-76.

(6) المصدر السابق: 76-211.

(7) المصدر السابق: 79، 106.

(8) المصدر السابق: 7.

(9) المصدر السابق: 79.

وكان للشيخ رحمه الله تعالى طريقةٌ فريدة في عرض الإعجاز اللغوي، فقد ابتدأ بذكر الشبهات[1] التي يمكن أن تثار في وجوه الذين يقولون بالإعجاز اللغوي وهي محصورة في خمس شبهات، ثم فندها جميعاً وأظهر عوارها، وهذه الشبهات هي:

الشبهة الأولى: القدرة على محاكاة القرآن، وهي لا تثار إلا من قِبل الأغرار الناشئين أو الكاذبين كمسيلِمة الكذاب.

الشبهة الثانية: قد يتيقن واحد من الناس عجزه عن الإتيان بمثل القرآن، لكنه يظن أن غيره ممن أوتي فصاحة وبلاغة قادر على معارضة القرآن.

الشبهة الثالثة: الصَّرفة؛ وذلك أن مثير هذه الشبهات علم من نفسه وغيره العجز عن مثل القرآن لكنه يظن أن هذا العجز مرده إلى أن الله صرف البشر عن معارضته فلم يحاوله أحدٌ قط ولو حاوله أحدٌ لأتى بمثله.

الشبهة الرابعة: بناء القرآن لا يخرج عن معهود العرب فكلماته كلماتهم وحروفه حروفهم فبم تميز عنهم؟ و لم كان خارجاً عن قُدَرهم؟ وهذه الشبهة لا تصدر إلا ممن لم يتذوّق أساليب العرب في نثرهم ونظمهم ومِن ثّم يقارنها بأسلوب القرآن العظيم.

الشبهة الأخيرة: لِمَ لا يكون اختلاف أسلوب القرآن عن أسلوب غيره من الكلام كاختلاف أساليب الناس بعضهم عن بعض فلكلٍّ أسلوبه في الكلام وطريقته؟

ولا يخفى أن الشيخ -رحمه الله تعالى- رتّب الشبهات على طريقة متدرجة فمن حُلّت له الشبهة الأولى أثار الثانية ومن حُلّت له الثانية أثار الثالثة وهكذا ...

ثم بعد فراغه من الإجابة على الشبهات ابتدأ بالمقصود الأعظم من كتابه وهو إثبات إعجاز القرآن البلاغي، وأن هذا الإعجازَ له دوحتان:

الدوحة الأولى: الإعجاز بتناسق الألفاظ وتأثيرها في السامع وهو ما عُرف قديماً بـ "الإعجاز النظمي"، وبيان أن التأثر به يختلف تماماً عن التأثر بأي كلام آخر[2].

الدوحة الأخرى: إعجاز معاني القرآن، وأنها قد بلغت الذِروة التي بلغتها فصاحة الألفاظ وتناسقها وجَرْسها[3].

ولكي يثبت هذا فإنه قسّم القرآن العظيم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: ما يؤدي معنًى تاماً، وقد يكون سورةً أو بضعَ آيات من سورة، وعبر عن هذا بـ "القرآن في قطعةٍ قطعةٍ منه"، وصدّر هذا القسم ببيان وجوه الكمال في أي كلام وهي:

1) القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى.

---

(1) المصدر السابق: 80-100.

(2) "النبأ العظيم": 101-106.

(3) المصدر السابق: 106 إلى آخر الكتاب.

2) خطاب العامة وخطاب الخاصة، ويعني بهذا أن الخطاب يتلذذ به الخاصة ويفهمونه، ويتلـــذذ به العامة ويفهمونه أيضاً.

3) إقناع العقل وإمتاع العاطفة معاً.

4) البيان والإجمال: أي أن الألفاظ مجملة لكنها تحوي بياناً كثيراً لمن يفهم ذلك منها.

وقد بيّن -رحمه الله تعالى- أن هذه الأربعة قد اجتمعت في القرآن العظيم على وجه معجز لا تستطيعه عقول البشر ولا كلامهم.

ثم إنه اختار ثلاث آيات لبيان ما يريده في هذا القسم الأول وهو بيان إعجاز القرآن في قطعة قطعة منه، وهـــي قولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الآيـــــات[1]، هذا وقد اختار هذه الآية وآيتين بعدها ولم يختر آيات اعتاد على الكلام عليها والتمثيل بها مَن قبله، نحو قولـــه تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[3] وذلك لأنـــه أراد التمثيل بمثال لا ينتبه له الناس عادة ليكون أقوى في الحجة[4].

ثم بعد أن أتى بآيات أُخرى تؤيد ما ذهب إليه تحدث عن:

القسم الثاني: وهو بيان إعجاز القرآن في سورة سورة منه: فقارن، رحمه الله تعالى، بين اتساق مواضيع السورة الواحدة في القرآن -ولو كانت منـــزلة في سنين متطاولة- وبين الأحاديث النبوية ونثر ونظم العرب، فقال عنها:

"خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي كان التحديث بها في أوقات مختلفة، وتناولت أغراضاً متباينة، أوخذ من كلام مَن شئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك وحاول أن تجيء بها سرداً لتجعـــل منـــها حديثاً واحداً من غير أن تزيد بينها شيئاً أو تنقصَ شيئاً، ثم انظر كيف تتناكر معانيها وتتنافر مبانيها في الأسماع والأفهام، وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة مالا يبدو على القول الواحد المسترسل"[5].

ثم ذكر أن النبي ﷺ مهما أوتي من قوة البيان ورجاحة العقل والتفكير لا يمكن له أن يُنـــزّل كل آيـــة من كل سورة موضعها فتبدو كل سورة بهذا التناسق البديع فلابد أن يكون هذا التنسيقُ من الله العلي القدير.

---

(1) سورة البقرة: الآيات: 91، 92، 93.

(2) سورة هود: آية 44.

(3) سورة البقرة: آية 179.

(4) "النبأ العظيم": 119.

(5) المصدر السابق: 145-146.

وضرب مثلاً على هذا التنسيق البديع والترابط بين مواضيع السورة المختلفة بسورة البقرة المدنية؛ وذلك لأنها أطول سورة في القرآن ونزلت في مدد طويلة متفاوتة وهذان العاملان أدعى إلى حدوث عدم الترابط ووقوع التنافر، لكنه أظهر -رحمه الله تعالى- في دراسته للسورة عِظم التناسق والترابط بين أجزائها.

أما القسمان الثالث والرابع وهما:

القرآن فيما بين بعض السور وبعض، والقرآن في جملته فلم يطرقها في هذا الجزء المطبوع من الكتاب، ولا أدري أفاجأه الموت قبل إكماله، أم أنه كتبه لكنه لم يطبع بعد؟

والكتاب في جملته فريد في بابه، مشوّق في طرحه لأبوابه وأبحاثه، جديد في بعض جوانبه، مُجدِّدٌ في جوانبَ أخرى.

أما التجديد في عرض ما سبق به المصنفون في الإعجاز فواضح في جميع جوانبَ الكتاب، حيث جاء جديداً في مبانيه، قديماً في بعض معانيه.

أما الجديد المطلق في كتابه فهو الآتي:

أولاً: استشهاده لبلاغة القرآن بآيات غير الآيات التي دأب على الاستشهاد بها الأولون، وذلك في قوله: "ولا تحسبن أننا سنضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التي وقع اختيار الناس عليها وتواصفوا[1] الإعجاب بها؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾[2] الآيةَ، وقوله: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾[3] وأشباههما، بل نريد أن نجيئك بمثال من عُرْض القرآن، في معنى لا يأبه له الناس، ولا يقع اختيارهم على مثله عادة، ليكون دليلاً على ما وراءه.

يقول الله تعالى في ذكر حِجاج اليهود:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[4].

هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل، والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلماتُ القليلة تتلخص فيما يلي:

1. مقالة ينصح بها الناصح لليهود؛ إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.
2. إجابتهم لهذا الناصحِ بمقالة تنطوي على مقصدين.
3. الرد على هذا الجوابِ بركنيه من عدة وجوه.

---

(1) أي وصف بعضهم لبعص مدى إعجابهم بها.

(2) سورة هود: آية 44.

(3) سورة البقرة: آية 179.

(4) سورة البقرة: الآيات 91، 92، 93.

وأقسم لو أن محامياً بليغاً وُكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضيةِ ثم هُدي إلى استنباط هـــذه المعاني التي تختلج في نفس الداعي والمدعو لَما وسعه في أدائها أضعافُ هذه الكلمات، ولعله بعد ذلك لا يفـــي بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق...".

ثم أخذ في بيان ما في تلك الآيات من بلاغة وسمو نظم[1].

ثانياً: مبحث الحروف التي ادُّعي أنها زائدة:

جاء في القرآن العظيم عدة حروف حكم كثير من المفسرين عليها بأنها أحرف زائدة، وتلطّف بعضهم فذكر أسباباً وحكماً لزيادتها، أما الأستاذ فينفي هذه القضية من أصلها ويبين أنه ليس في القرآن حرفٌ زائـــد، فذكر في مبحث الإيجاز أن القرآن "ليس فيه كلمةٌ إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرفٌ إلا جاء لمعنى.

دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها مقحمة، وفي بعض حروفه إنها زائدة زيـــادة معنوية، ودع عنك قول الذي يستخف كلمة التأكيد فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيـــادة؛ لا يبـــالي أن تكون تلك الزيادةُ فيها معنى المزيدِ عليه فتصلح لتأكيده أولا تكون، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجةٌ إلى هذا التأكيد أوْ لا حاجة له به.

أجل دع عنك هذا وذاك فإن الحُكم في القرآن بهذا الضربِ من الزيادة أو شبهها إنما هو ضـــربٌ مـــن الجهل -مستوراً أو مكشوفاً- بدقة الميـــزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن..." [2].

ثم حثّ القارئ على تدبر القرآن ليخرج بحِكَم في هذا المبحث تعين على فهم أسرار أسباب ورود هذه الأحرف، ثم ضرب عليها مثلاً بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[3] فقال:

"أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف، بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة فـــراراً من المحال العقلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافيةً الشبيهَ عن مِثل الله، فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه...

وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها؛ إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصـــاً ولا احتمالاً؛ لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً ... وقصارى هذا التوجيه -لو تأملتـــه- أنـــه مصحح لا مرجح؛ أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف ولكنه لا يثبت فائدته ولا يـــبين مســـيس الحاجـــة إليه..."[4] ثم أخذ في توجيه هذا الحرفِ -حرف الكاف- توجيهاً جميلاً جديداً[5].

تلك كانت نبذة عن منهج د. دراز في تناول الإعجاز.

---

(1) "النبأ العظيم": 119-127.

(2) "النبأ العظيم": 130-131.

(3) سورة الشورى: آية 11.

(4) "النبأ العظيم": 132.

(5) المصدر السابق: 132-136.

المبحث السابع: جهود العلماء في إبراز الإعجاز العلمي

قد كان لعلماء الإسلام جهود في إبراز الإعجاز العلمي في القرآن العظيم، لكنها كانت مناسبة لعلوم عصورهم، وما انتهى إليه البحث العلمي في أزمنتهم، وقد وردت شذرات من قضايا الإعجاز العلمي في كلام أولئك العلماء ضمنوها مصنفاتهم، وأكثر من تحدث عن تلك القضية علماء التفسير عند تناولهم الآيات التي تتحدث عن الكون بالشرح والتفسير، فقد اجتهدوا في بيانها وتفسيرها بحسب ما وصلت إليه علوم عصرهم آنذاك، فمنهم من أصاب في تفسيره ومنهم من أخطأ.

ومن أبرز من ناصر القضية من المفسرين الإمام الرازي فقد قال:

"ربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم، وذلك خلاف المعتاد، فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته... إن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة، بأحوال خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور، وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها..." [1].

وهناك علماء آخرون ناقشوا أصل القضية، فمنهم من قبل هذا، ووضع له بعض القواعد، ومنهم من توقف في قبوله، بل وصل بهم الأمر إلى رفض الخوض في هذا الموضوع أصلاً، كما صنع الإمام الشاطبي الأصولي[2] فقد قال:

"إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، وإلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومَن يليهم كانوا أعرفَ بالقرآن وبعلومه وما أُودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المُدَّعى... ويجب الاقتصار -في الاستعانة على فهمه- على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أُودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقوّل على الله ورسوله فيه...".[3]

(1) انظر "إعجاز القرآن الكريم": 247، وقد نقل عن تفسير الرازي: 122/14.

(2) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخميّ الغرناطيّ، أبو إسحاق الشهير بالشاطبيّ. الإمام العلامة المحقق، القدوة الحافظ المجتهد. كان أصولياً، مفسراً، فقيهاً، محدثاً، لغوياً، ثبتاً، ورعاً صالحاً زاهداً، سنياً. له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة مع الحرص على اتباع السنة واجتناب البدعة، وكان من أئمة المالكية. ألف تآليف نفيسة، وله نظم رائق. توفي سنة 790 رحمه الله تعالى. انظر "نيل الابتهاج": 48-52.

(3) "الموافقات": 81/2 نقلاً عن كتاب "إعجاز القرآن الكريم": 242.

ولا ريب عندي أن الإمام الشاطبي –رحمه الله تعالى– قد جانبه الصواب في هذه المسألة، إذ إن الاقتصار على فهم القرآن وتفسيره على ما كان عليه العرب الأوائل تحجير لأمر واسع، وتحكّم بلا دليل، والحكمة ضالة المؤمن، والله أعلم.

أما العلماء –من غير المفسرين، كما مرّ آنفاً– الذين قبلوا تفسير القرآن بتوجيه ما فيه من إشارات علمية كونية فقد اقتصروا على بيان أن القرآن يحوي على مبادئ كل العلوم، وإشارات لكل الفنون؛ وذلك كصنيع أبي الفضل المرسي[1] –رحمه الله تعالى– لكن كلامه طويل جداً ولا أرى إيراده هاهنا فليُنظر في مكانه.[2]

موقف المُحْدَثين والمعاصرين:

تفاوت موقف العلماء المحدثين بين رافض ومجيزة:

فممن رفض الولوج في هذا النوع من الإعجاز أمين الخولي[3]، والدكتور محمد حسين الذهبي[4] والشيخ محمود شلتوت[5]، ومحمود شاكر[6] الذي توقف بعض التوقف وسلك مسلكاً يفضي في النهاية إلى المنع[7].

ومن أجاز الأستاذ محمد عبد ه[8] والأستاذ رشيد رضا[1] والرافعي، والدكتور محمد عبد الله دراز، والأستاذ محمد أحمد المغراوي والأستاذ سيد قطب، رحمهم الله جميعاً.

---

(1) محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل المرسي، أبو عبد الله شرف الدين، العلامة، النحوي، الأديب، الزاهد، المفسر، المحدث، الفقيه، الأصولي. له عدة كتب. توفي سنة 655 رحمه الله تعالى. انظر "طبقات الشافعية الكبرى": للسبكي: 69/8 وما بعدها.

(2) انظر "الإكليل في استناط التنزيل": 243/1–253.

(3) من أعضاء المجمع اللغوي بمصر. ولد في قرية شوشاي بالمنوفية سنة 1895/1313، وتعلم بالأزهر وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي، وتعلم بالأزهر وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي، وعين للشؤون الدينية في السفارة المصرية بروما فأحدث أزمة حملت حكومة إيطاليا على طلب نقله، فنقل إلى برلين، وأثار أزمة أخرى، فدعته حكومته إلى مصر، وعين أستاذاً في الجامعة المصرية القديمة، ثم كان وكيلاً لكلية الآداب إلى سنة 1953، فمديراً للثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم إلى سنة 1955 وبها أحيل إلى المعاش. مثّل مصر في عدة مؤتمرات. وتوفي بالقاهرة سنة 1966/1385 رحمه الله تعالى. وله عدة كتب. انظر "الأعلام": 16/2.

(4) عالم أزهري كبير. عُرف ببحوثه القيمة في مناهج التفسير. اغتيل في شهر رجب سنة 1977/1397 رحمه الله تعالى. من مؤلفاته: "الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم: دوافعها ودفعها"، "التفسير والمفسرون"، "الشريعة الإسلامية: دراسة مقارنة بين مذاهب أهل السنة ومذهب الجعفرية"، وغير ذلك انظر "تتمة الأعلام": 145/2.

(5) فقيه مفسر مصري. ولد سنة 1310 في منية بني منصور في البحيرة بمصر، وتخرج في الأزهر، وتنقل في التدريس إلى أن نقل للقسم العالي بالقاهرة. وكان داعية إصلاح فسعى إلى إصلاح الأزهر فطرد منه ثم أعيد، وكان عضواً في هيئة كبار العلماء ثم صار شيخاً للأزهر. له مصنفات كثيرة. توفي سنة 1383 رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": 173/7.

(6) أديب مصري مشهور، التحق بالجامعة المصرية ثم تنازع مع طه حسين بسبب بعض آرائه الإسلامية غير المقبولة، والتي جنح فيها إلى تقليد عدد من المستشرقين، فصدع الشيخ بالحق أمام طه حسين، ثم ترك الجامعة، وعين بعد ذلك مدرساً في السعودية، ثم عاد إلى مصر. له العديد من المصنفات والتحقيقات التي أظهر فيها براعة فائقة في العربية والثقافة والتراث. توفي رحمه الله تعالى سنة 1417.

(7) انظر تفصيل هذا في "إعجاز القرآن الكريم": 242–246.

(8) محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني. مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال التجديد والإصلاح. ولد في إحدى قرى مصر سنة 1266، وتعلّم بالجامع الأحمديّ ثم بالأزهر، وتصوّف وتفلسف، وعمل في التعليم وكتب في الصحف، وأجاد الفرنسية بعد الأربعين. ولما احتل الإنجليز مصر قاومهم فنفوه إلى بلاد الشام ثم سافر من هنالك إلى باريس فأصدر مع أستاذه وصديقه جمال الدين الأفغاني مجلة العروة الوثقى، ثم سمح له بالعودة إلى مصر فتولى عدة مناصب فيها كالقضاء وإفتاء الديار المصرية. وله عدة مصنفات، وعليه عدد من الملاحظات الفكرية والعقدية تنظر في مظانها. توفي بالإسكندرية سنة 1905/1323. وانظر "الأعلام": 252/6–253.

وأنا لا أريد مناقشة الفريقين فهذا أمر يطول، لكني أريد أن أخلص إلى أمور في هذا المبحث، منها:

1. إن اتفاق أكثر العلماء اليوم قد قام على قبول الإعجاز العلمي بشروط منها:

أ. ألا يؤتى في إثبات الإعجاز بنظريات العلوم التي لم تثبت بعد بل يجب أن يؤتى بالحقائق العلمية فقط التي استقرت وقُبلت، وهنا يسوغ استعمالها لاثبات الإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى.

ب. أن يكون الباحث في الإعجاز متمكناً من علوم الشرع واللغة تمكناً يفضي به إلى فهم ما يخوض فيه من مباحث الإعجاز، وليس شرطاً أن يكون الباحث محيطاً بهذين العلمين لكن الشرط -عندي- أن يكون محيطاً بهماً فيما يتعلق بأبحاثه التي يجريها حتى لا يهجم على كتاب الله تعالى بدون فهم وعلم.

جـ. عدم الاعتساف في فهم الإعجاز، وفي تنزيل النص القرآني العظيم على ما يختاره الباحث من حقائق العلم، وعدم ليّ عنق النصوص.

د. عدم مخالفة ما أثر عن النبي ﷺ أو الصحابة ﷺ فيما له حكم الرفع.[2]

2. إن توضيح الإعجاز العلمي ووضع القواعد والضوابط له قد خطا خطوات واسعة، وقد بدأ البداية القوية الحقيقية بإنشاء "الهيئة العالمية للإعجاز" التابعة لرابطة العالم الإسلامي سنة 1976/1396، فمنذ ذلك الوقت استفاد العلماء القائمون على هذه الهيئة من أبحاث القدماء والمعاصرين وشروطهم وقواعدهم وضوابطهم وأفرغوا كل ذلك في أبحاث جادة جليلة، استفادت من جهود السابقين لكنها أتت بالجديد الرائع الذي هز الأوساط العلمية العالمية، وبسببه أقبل عدد من علماء الغرب والشرق على الإسلام دراسة وفهماً ومن ثَم أسلم بعضهم في سياق رائع جليل، ومعنى كلامي هذا أن الهيئة انتقلت بأبحاث الإعجاز من التنظير والتقعيد والتمثيل إلى التطبيق والبحث العلمي الجاد الذي أصبحت بسببه أبحاث الإعجاز حقائق يراها الناس ويلمسونها.

ولقد بذلت الهيئة مشكورة جهداً عظيماً في باب الإعجاز العلمي تجلى في التالي:

1. الفراغ التام من الضوابط والقواعد الحاكمة لأبحاث الإعجاز، وذلك بعد تخبط طويل، واختلاط في المفاهيم كبير، ولله الحمد والمنة.

2. إقامة المؤتمرات العلمية العالمية كل 4 سنوات، وإقامة الندوات العديدة بين كل مؤتمرين، وهي التي يُعرض فيها الأبحاث الجديدة للإعجاز، وقد اختلفت أنظار العلماء في تقويم هذه المؤتمرات والندوات لكنها على أي حال جهد مهم بُذل في تعريف العالم بالإعجاز العلمي بحيث أصبحت القضية متداولة في الجامعات ومراكز الأبحاث العالمية.

---

(1) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القَلَموني الأصل الحسينيّ، صاحب مجلة "المنار" وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. ولد في القلمون -من لبنان- سنة 1282، وتعلم فيها وفي طرابلس، ثم رحل إلى مصر سنة 1315، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. ثم أصدر مجلة "المنار"، وصار مرجع الفتيا في التوفيق بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ارتحل مراراً، وله مصنفات كثيرة، وجرت عليه أحداث حتى توفي سنة 1354 بمصر رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": 126/6.

(2) "إعجاز القرآن الكريم": 260.

3. رعاية البحوث العلمية في الإعجاز، وضبطها بالقواعد التي تضمن عدم الشطط والاعتساف وسوء التفسير وضحالة النتائج.

4. الفراغ التام من بعض القضايا التي أثيرت في أوائل القرن الماضي لكنها لم تكتمل بحثاً و لم تُشبع نظراً وفكراً، وذلك نحو الإعجاز المتعلق بخلق الإنسان، وقضية الجبال ووظيفتها، والبرزخ الحاجز بين كل سطحين مائيين، وقضية نقص الأكسجين كلما صعد الإنسان في الغلاف الجوي، وقضية اليخضور النباتي وغير ذلك مما أصبح من المسلمات، وصار جواهر فاخرة في عِقد الإعجاز العلمي، بعد جُهد جهيد وبذل كبير.

5. تقليل عدد المشككين في الإعجاز العلمي حتى أصبح من يشكك في أصله وفائدته كالمكابر الذي ينكر الحس، بل يكاد الإعجاز العلمي أن يكون كلمة إجماع بين العلماء في السنوات الأخيرة.

6. تأليف بعض المؤلفات النافعة في الإعجاز العلمي مما كانت الساحة العلمية مفتقرة أشد الافتقار إليه قبل وجود الهيئة العالمية.

7. أصبحت مادة الإعجاز العلمي مقررة في بعض الجامعات في العالم الإسلامي، وهذا كان مطلباً ملحاً وقد تحقق أخيراً، ولله الحمد والمنة.

8. فتح مكاتب فرعية للهيئة العالمية في عدد من مدن الإسلام، وقد كان لهذا نفع لا ينكر وأثر لا يجهل.

لكن هذا لا ينبغي أن ينسينا أن هناك بعض الثغرات لم تُسد حتى الآن، منها:

1. قلة الترجمة لأبحاث الإعجاز إلى لغات العالم الحية وإيداعها في كتب تليق -نشراً ونوع ورق وخطاً- بهذه القضية الجليلة، فقد رأيت عدداً من الكتب المترجمة على حالة لا ينبغي أن تكون عليها ولا تليق بهذا العلم العظيم.

2. إلى الآن لم تصنع أفلام وثائقية على هيئة وجَوْدة تليق بالإعجاز، لا باللغة العربية ولا بغيرها من اللغات، وهذا لا يصح في زمن أصبح الإعلام المرئي له الصدارة العظمى بين وسائل الإعلام.

3. عدم وجود أنظمة فعالة تأخذ على يد المتطفلين على هذا العلم، والذين يخالفون بعض القواعد والشروط التي لابد من مراعاتها حال الخوض في قضايا الإعجاز العلمي وبهذا أصبحنا نرى كتباً في الساحة الثقافية فيها من الغثائية والضعف والتهافت ماالله تعالى به عليم.

4. هناك أمر مهم جداً وهو وجوب الانتقال من الاعتماد على الغرب والشرق علمياً إلى الاعتماد على جهودنا وعملنا -بعد توفيق الله تعالى لنا- إذ إن كثيراً من أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن العظيم إنما قامت على جهود أبحاث قام بها غير المسلمين -في الغالب- كالبرزخ بين السطحين المائيين، وكوظيفة الجبال، والإعجاز في آيات البحار، وإعجاز خلق الإنسان إلى آخره...

ولقد حان الوقت كي ننظر في كتاب ربنا -تعالى- ونستخرج منه الدليل والمدلول لا أن نكتفي باستخراج الدليل والعمل على إنزاله على المدلول الذي بذل فيه غير المسلمين الجهد العظيم، بمعنى أن نكون

نحن الرواد في لفت نظر العالم إلى أمور جديدة في الإعجاز لم يكن يعرف موضوعاتها من قبل، و لم تشملها أبحاثه، فإن صنعنا فذلك هو النجاح الأعظم، وهو الغاية الكبرى التي تُنتظر بعدما وصلنا إليه في هذا العصر من النضج التام لأبحاث الإعجاز وقواعده وضوابطه، وهو المرحلة الأخيرة التي يجب أن نوجه لها جهدنا وعملنا، فإننا إلى الآن عالة على الأبحاث الغربية، في الجملة، وإلا فهناك بشائر بدايات لهذه المرحلة إلا أنها بواكير خجولة، وبدايات متعثرة، ينبغي أن تتعاون الجهود على الأخذ بها إلى الكمال، والله الموفق.

المبحث الثامن: جهود العلماء في إبراز الإعجاز التشريعي

هذا النوع من الإعجاز أزعم أن الجهود في بيانه والعناية به ضحلة للغاية، بل هو الإعجاز اليتيم الذي لم يجد من يرعاه ويقوم به إلى الآن.

وقد اختلفت أنظار العلماء في هذا النوع من الإعجاز؛ فمنهم من يقتصر في الإعجاز التشريعي على أحكام العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية، وهم العدد الأكبر[1]، ومنهم من يرى أن الإعجاز التشريعي يتعدى هذا إلى تناول العقيدة والإيمان والإحسان وغير ذلك من جوانب الإسلام، وعلى رأس هذا الفريق شيخنا الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد –حفظه الله تعالى ونفع به– وقد ألف في هذا مصنفاً نافعاً لكنه مفتقر للأمثلة ومزيد من التقعيد والبيان على جلالته ورفعة قدره، لكن المسألة مهمة وينبغي تضافر الجهود لبيانها وضبط قواعدها.

ولقد أكثر العلماء في الماضي والحاضر من الحديث عن جوانب من الإعجاز التشريعي وبيان حِكَمه التي لا تنقضي، لكني أظن أن هذا النوع من الإعجاز مفتقر إلى ثلاثة أمور مهمة:

1. بيان مداه وما يشمله، وبمعنى آخر وضع حَدٍّ له ينهي الخلاف بشأنه، ويرفع الإشكال في فهمه، وكتابة مؤلف جامع في هذا، وهو عمل ينبغي أن تتولاه هيئة عليا لإتمامه.

2. المقارنة الجادة بين بعض جوانب التشريع في الإسلام وجوانب التشريع عند الأمم الأخرى، وهذا عمل لم أره للأقدمين على وجه الإحاطة أو التوسع، واجتهد فيه بعض المحدثين[2]، لكن هذا من الأعمال الموسوعية التي ينبغي أن تلتقي عليها جهود رجال تشريع عظماء من الشرعيين والقانونيين والحقوقيين وعلماء الفكر والاجتماع والثقافة.

3. عقد مؤتمرات عالمية تُعنى بجمع علماء التشريع في العالم وعرض ما في كتابنا العظيم وسنة نبينا الكريم ﷺ من تشريعات هم بأمسّ الحاجة إليها لإنقاذ مجتمعاتهم من الهوة السحيقة التي سقطت فيها.

---

(1) انظر "إعجاز القرآن الكريم": 285-286.

(2) انظر –مثالاً– ما فعله الشيخ محمد أبو زهرة في مقال "شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله" مجلة المسلمون العدد الأول السنة الأولى ص32، وكتابه "المعجزة الكبرى": 385، والدكتور محمد يوسف موسى في كتابه "التركة والميراث في الإسلام"، وهناك كتب عديدة ألفها علماء ومثقفون في المقارنة بين حال المرأة في الإسلام وحالها في النظم الوضعية القديمة والحديثة.

ويجب -في ظني، والله أعلم- حتى تتحقق تلك الأمور أن تُنشأ هيئة عالمية للإعجاز التشريعي تُعنى بــه وتقوم على شؤونه؛ وذلك لأن التخصص طريق الإبداع، وهذا هو الإعجاز العلمي بعد أن أُنشئت لــه هيئــة عالمية أصبح مِلْء السمع والبصر، وحديث الدنيا وشاغل الناس.

المبحث التاسع: جهود العلماء في إبراز الإعجاز التاريخي

هذا النوع من الإعجاز بذل فيه الأقدمون جهوداً متوسطة[1]، لكن المحْدثين والمعاصرين لم يلتفتوا إليــه كما ينبغي؛ إذ إن له فوائد جمة.

وينقسم الإعجاز التاريخي إلى إعجاز بأخبار الغيب الماضية، وأخبار الغيب الحاضرة وأخبــار الغيــب المستقبلية، ومن أمثال أخبار الغيب الماضية في كتاب الله تعالى التفاصيل الرائعة لقصص الأنبياء التي لا يمكــن للنبي ﷺ أن يعرفها آنذاك، بل إن بعضها لم يذكر في الكتب التي بين يدي أهل الكتاب مثل قصة صالح وهود -عليهما الصلاة والسلام- وبعض تلك القصص لم يكن يعرف تفاصيلها الدقيقة الواردة في القرآن أحد مــن أهل الكتاب إنما يعرف قليل منهم طرفاً منها فقط، ولذلك قال سبحانــــه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[2].

أما أخبار الغيب الحاضرة فمثالها إخبار القرآن عن الدار الآخرة وما فيها في وقت نــزول القرآن.

أما أخبار الغيب المستقبلية فهي البحر الزخّار، واليم الذي ليس له قرار، منها ما يتعلق بأخبــار آخــر الزمان والقيامة والتغيرات الكونية آنذاك، ومنها ما يتعلق بأحداث مستقبلية سيراها النبي ﷺ وأصحابه رضــي الله عنهما، ومنها أحداث أخرى ستتحقق بعد التحاقه ﷺ بالرفيق الأعلى[3].

ولولا خوف الإطالة بالتمثيل، وخوف الخروج عن الموضوع لأتيت بالأمثلة الكثيرة في هذا الباب، لكن أكتفي بذكر مثال على أهمية هذا النوع من الإعجاز بجهد بذله أحد العلماء الغربيين الذين أسلموا، وكان مــن أسباب إسلامه الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة في كتاب الله -تعالى- وهو العالم الفرنسي موريس بوكــاي[4] الذي دُهش كثيراً من قوله تعالى قاصًّا لنا حال فرعــون: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[5]، والقصة كالتالي: "اشتهر عن فرنسا أنها من أكثــر الــدول

---

(1) قد مرّ الحديث عن الإعجاز بأخبار الغيب -وهو المقصود بالإعجاز التاريخي هاهنا- في بعض أعمال العلماء القدامى فيما سبق من عَــرْضٍ لبعض كتبهم في هذا الكتاب.

(2) سورة هود: آية 49.

(3) قد سبق الحديث عن بعض ضوابط الإعجاز بأخبار الغيب -وهي المقصودة بالإعجاز التاريخي- ببعض التفصيل في هذا الكتــاب: المبحــث الرابع: جهود المفسرين: مطلب القول في الإعجاز بأخبار الغيوب ص: 45.

(4) طبيب وعالم فرنسي معروف في الأوساط العلمية في العالم. أسلم قبل سنوات على إثر إطلاعه على إعجاز القرآن في قصة فرعون، وله كتب مهمة على رأسها "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم".

(5) سورة يونس: آية 92.

اهتمامًا بالآثار والتراث, وعندما تسلم الرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام 1981م طلبت فرنسا من مصر في نهاية الثمانينيات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة.

فتمَّ نقل جثمان أشهر طاغوت عرفته مصر، وهناك – وعلى أرض المطار – اصطف الرئيس الفرنسي منحنيًا هو ووزراؤه وكبار المسئولين في البلد عند سلم الطائرة؛ ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك، وكأنه ما زال حيًّا!!

عندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا، حملت مومياء الطاغوت بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي, ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها, وكان رئيس الجراحين والمسئول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية، هو البروفيسور موريس بوكاي.

كان المعالجون مهتمين في ترميم المومياء, بينما كان اهتمام رئيسهم موريس بوكاي عنهم مختلفًا للغاية, كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني, وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية.

لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقاً، كما أن جثته استُخرِجت من البحر بعد غرقه فورًا, ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه , لكنَّ ثَمَّة أمرًا غريبًا ما زال يحيره، وهو كيف بقيت هذه الجثة – دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة – أكثر سلامة من غيرها، رغم أنها استخرجت من البحر؟! كان موريس بوكاي يُعِدُّ تقريرًا نهائيًّا عمّا كان يعتقده اكتشافًا جديدًا في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة, حتى همس أحدهم في أذنه قائلاً: لا تتعجل؛ فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.

ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر, واستغربه, فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث، وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة, فزاد آخر اندهاشه بقوله: إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصةً عن غرقه، وعن سلامة جثته بعد الغرق.

فازداد ذهولاً، وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلاً إلا في عام 1898 ميلادية، أي قبل مائة عام تقريبًا, بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟! وكيف يستقيم في العقل هذا, والبشرية جمعاء – وليس المسلمين فقط – لم يكونوا يعلمون شيئًا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط؟!

جلس موريس بوكاي ليلته محدقًا في جثمان فرعون, يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق، بينما كتاب المسيحيين "إنجيل متى ولوقا" يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتَّة، وأخذ يقول في نفسه: هل

يُعقَل أن يكون هذا المحنَّط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟! وهل يعقل أن يعرف محمـــدهم ﷺ هذا قبل أكثر من ألف عام، وأنا للتوِّ أعرفه؟!

لم يستطع موريس أن ينام, وطلب أن يأتوا له بالتوراة, فأخذ يقرأ في سِفر الخروج من التـــوراة قولـــه: "فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يبق منهم ولا واحد"، وبقي موريس بوكاي حائرًا.

حتى التوراة لم تتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه.

أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر، ولكن موريس لم يهنأ له قرار، ولم يهدأ له بال, منذ أن هزَّه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة؛ فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة الســـعودية لحضور مؤتمر طبي يوجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين.

وهناك كان أول حديث تحدَّثه معهم عمّا اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق، فقام أحدهم وفـــتح له المصحف، وأخذ يقرأ له قوله تعالى:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (1).

لقد كان وَقْع الآية عليه شديدًا، ورُجَّت له نفسه رجة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: "لقد دخلت الإسلام، وآمنت بهذا القرآن" (2).

ـــ **وهناك أيضاً حدثٌ تاريخيٌ مهم** وهو التفريق بين فرعون مصر وملك مصر، وقد جاء القرآن بهـــذا التفريق العجيب على النحو التالي:

"لقد ذكر القرآن حكام مصر الأقدمين وفرق بينهم [فحين] يذكر حكام مصر في عصر موسى –عليـــه السلام– لا يذكره إلا بصيغة فرعون، وذلك في أكثر من ستين آية كريمة.

أما عند ذكر حكام مصر في عصر نبي الله يوسف عليه السلام فلا يذكره إلا بلفظ الملك قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ (3).

التوراة وذكر حكام مصر القدماء:

لم تفرق التوراة إطلاقاً بين حكام مصر في عصر نبي الله موسى وبين حكام مصـــر في عصـــر نـــبي الله يوسف فكانت تذكرهم بلفظ الفرعون دون التفريق بينهم.

(1) سورة يونس: آية 92.

(2) "عظماء أسلموا":91-94.

(3) سورة يوسف: آية 43.

جاء في التوراة (إصحاح 9خروج: 13):

"ثم قال الرب لموسى: بكر في الصباح وقف أمام فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين: أطلق شعبي ليعبد وني لأني أرسل جميع ضرباتي إلى قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكي تعرف أنه ليس مثلي في كل الأرض".

أما لما تحدث عن حاكم مصر في عهد يوسف في (إصحاح تكوين 41):

"فحسن الكلام في عيني فرعون وفي عيون جميع عبيده، فقال فرعون لعبيده: وهل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله. ثم قال فرعون ليوسف: بعد ما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك. أنت تكون على بيتي وعلى فمك يقبل جميع شعبي..".

لقب الملك لحكام مصر:

مما تبين لنا من خلال مطالعة الموسوعة البريطانية وموسوعة الويكيبيديا وغيرها من الكتب التي تحدثت عن تاريخ مصر القديمة أن لفظ الفرعون لم يستعمل إلا في بداية الأسرة الثامنة عشرة أي سنة 1539 قبل الميلاد فصاعداً، أي كل الفترة الزمنية التي سبقت هذا التاريخ كان لقب حكام مصر هو الملك بدون خلاف على ذلك سواء في أيام احتلال الهكسوس -الذي يعني اسمه الملك باللغة المصرية القديمة- لمصر ما بين سنة 1648 إلى 1540 ق.م أو قبلها.

نزول يوسف إلى مصر:

ومن المتفق عليه أن نزول يوسف إلى مصر وحكمه كان قبل بعثة موسى عليه السلام بفترة طويلة وذلك لقوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون:﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[1].

فالمصريون لم يقولوا لن يبعث الله من بعده رسولا إلا بسبب الفترة الطويلة التي جاءت بعده و لم يرسل فيها الله نبياً وهذا بعكس أنبياء بيني إسرائيل الذين كان الله سبحانه يرسلهم على فترات متقاربة، وبما أن بعثة موسى كانت في زمن فرعون مصر -رمسيس الثاني- كما تبين لنا في بحث سابق فلا شك أن يوسف كان في مصر قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة أي الفترة التي كان يطلق على حكام مصر لقب الملك بغض النظر إن كان الحكام مصريين أم من الهكسوس فالكل كان يطلق لفظ ملك على الحاكم.

الإعجاز الغيبي للقرآن:

(1) سورة غافر: آية 34.

لقد فرق القرآن بين عصريين مهمين في التاريخ المصري وهو عصر ما قبل الفراعنة أي ما قبل الأسرة الثامنة عشرة الذين كانوا يطلقون لقب الملك على حكامهم، وعصر ما بعد الفراعنة الذين كانوا يطلقون لقب الفرعون على حكامهم وذلك ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة، بعكس التوراة التي لم تفرق بين العصرين أو اللقبين ففرعون هو اللقب الخاص لحكام مصر في التوراة سواء أيام نبي الله يوسف أو نبي الله موسى، وهذا يخالف العلم الحديث.

أما القرآن الكريم فكان ولا يزال كتابَ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي لا يوجد فيه أي تناقض، قال الله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1].[2]

هذان مثالان معاصران لما أثمره البحث في الأمور التاريخية في كتاب الله -تعالى- ويدلان على أهمية بذل جهود كبيرة في مجال البحث عن الحقائق التاريخية في القرآن، وإثبات جلالتها وعظمتها وإعجازها.

ــ وينبغي التنبيه على عدة أمور هاهنا:

أولاً: إن الإعجاز بأخبار الغيب من أعظم الأمور التي تُعظم اليقين في نفوس المؤمنين، وتزيد من إيمانهم، وهذا أمر مشاهد محسوس.

ثانياً: وهذه الأخبار مهمة -أيضاً- في دعوة الكافرين للدخول في هذا الدين، فهي من أعظم البراهين على صحة القرآن ونبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثالثاً: ينبغي أن يُفرد الإعجاز بأخبار الغيب عن الإعجاز العلمي، فهما يختلطان في العرض على الناس في بعض الأحيان، وذلك نحو الإعجاز في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾[3]، إذ إن العلماء العلميين عندما يعرضون الإعجاز في هذه الآية يركزون كثيراً -وحُق لهم ذلك- على قوله تعالى: ﴿ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ فيثبتون أن أخفض بقعة على وجه الأرض هي التي حدثت فيها المعركة بين الفرس والروم وهي منطقة البحر الميت، لكنهم يغفلون عن إيضاح الإعجاز التاريخي في هذه الآية أو يقصرون في ذلك تقصيراً هو كأخي الغفلة.

رابعاً: ينبغي الحذر في تناول أخبار الغيب المستقبلية في كتاب الله تعالى تناولاً معتسفاً منتقياً؛ فإن هذا له آثار سيئة، وذلك نحو قضية بني إسرائيل في صدر سورة الإسراء وتفسير العُلوّ الكبير، وتفسير معنى ﴿ عِبَادًا لَّنَآ

---

(1) سورة النساء: آية 82.

(2) بقلم فراس نور الحق مدير موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. www.quran-m.com.

(3) سورة الروم: الآيات 1-4.

أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾[1] فإن هذا له علاقة كبيرة بالصراع بيننا وبين إخوان القردة اليوم، فمن فسره بأنه أمر مضى وأن العلو الكبير إنما كان زمان سليمان -عليه الصلاة والسلام- فقد أخطأ، والله أعلم، ومن فسر الإفسادين بأنهما لم يقعا بعد فقد أبعد النجعة، إنما ينبغي تفسير هذه القضية على ضوء تاريخ اليهود في الماضي والحاضر على وجه منضبط مستقيم لا يورث قنوطاً ويأساً، وكذلك لا يهون من شأنهم ويقلل من أمرهم.

خامساً: حبذا لو أُنشئت هيئة عليا عالمية لرعاية الإعجاز التاريخي، وتكون لها علاقة جيدة بالهيئات والمؤسسات والكليات التاريخية تثمر عن أبحاث تفيد في تقرير الإعجاز التاريخي، وإحسان عرضه بالوسائل الإعلامية المختلفة.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا ما تيسر عرضه في هذه القضية الجليلة المهمة، وفي ذلك العرض بعض الجوانب:

أولاً: قد أوجزت كل الإيجاز، وإلا فالأمر محتمل للتطويل وبحثه وعرضه في مجلدات عديدة، لكن هذا الإيجاز من مقتضيات البحث، فأرجو المعذرة على التقصير والانتقاء والاجتزاء والاكتفاء.

ثانياً: هناك بعض وجوه الإعجاز التي لم أطرقها كالإعجاز العددي، وذلك لعدم ضبط قواعده إلى الآن -كما بينت في المقدمة- ومثل الإعجاز بوقت نزول القرآن، والإعجاز بحجم القرآن، وغير ذلك مما أغفلت الحديث عنه من أنواع الإعجاز، وذلك لأن الجهود المبذولة في تقريره ضعيفة وقليلة، ولئلا يطول البحث بذكره، وهو أقل أهمية من الأوجه التي اتفق عليها أكثر علماء الأمة وارتضوه وقرروه بتوسع في الكتب التي خصصت لهذا.

ثالثاً: هناك بعض المباحث التي ذكرتها حقيقة بالإفراد في مؤتمرات وندوات وتآليف مستقلة لأهميتها البالغة في زماننا هذا، ويأتي على رأس ذلك الإعجاز العلمي والإعجاز التشريعي والإعجاز التاريخي (الإعجاز بأخبار الغيب).

هذا والله أعلم وأحكم، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

(1) سورة الإسراء: آية 5.

فهرست المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

"**الإتقان في علوم القرآن**": الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ). نشر دار الندوة الجديدة. بيروت جزءان في مجلد.

"**الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد**": الإمام أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي. (ت 458هـ). قدم له وخرج أحاديثه وعلق حواشيه محمد عصام الكاتب.

"**الإعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم**": د. محمد محمد أبو موسى. نشر مكتبة وهبه. مصر. الطبعة الأولى. سنة 1405هـ.

"**إعجاز القرآن**": الإمام أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني. (ت 403هـ). تحقيق السيد أحمد صقر. نشر دار المعارف مصر. الطبعة الثالثة.

"**إعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء**": محمد بن موسى الشريف. دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة الثانية.

"**الإعجاز القرآني: وجوهه وأسراره**": الدكتور عبد الغني محمد سعد بركة. نشر مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الأولى. سنة 1409هـ (جزء).

"**الأعلام**": الأستاذ خير الدين الزركلي. نشر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الخامسة. سنة 1980م (ثمانية جلدات).

"**إعجاز القرآن**" الإمام أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403هـ). تحقيق السيد أحمد صقر. نشر دار المعارف مصر. الطبعة الثالثة (جزء).

"**الإكليل في استناط التنزيل**": جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ). تحقيق سيف الدين عبد القادر الكاتب. نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. سنة 1401هـ (جزء).

"**الانتصار لنقل القرآن**": الإمام محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403هـ).

طبع مختصرة باسم "نكت الانتصار" بتحقيق د.محمد سلام، ونشرته منشأة المعارف بالإسكندرية، مخطوط موجود بعضه ومفقود بعضه الآخر، كما في مقدمة تحقيق كتاب "نكت الانتصار".

"**البحر المحيط**": الإمام أبو حيان الأندلسي = محمد بن يوسف (ت 745هـ). نشر دار الفكر. بيروت. الطبعة الثانية. سنة 1403هـ (ستة أجزاء في خمسة مجلدات).

"**البرهان في علوم القرآن**": الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت794هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. نشر دار المعرفة. بيروت (أربعة مجلدات).

"**بلاغة القرآن الكريم في أدب الرافعي**"."**بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ**": د. فتحي أحمد عامر. نشر منشأة المعارف. الإسكندرية (جزء).

"**بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية**": الدكتور عبد الفتاح لاشين. نشر دار الفكر العربي. القاهرة (جزء).

"**البيان في إعجاز القرآن**": الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي. نشر دار عمار. الأردن. الطبعة الثالثة. سنة 1413هـ (جزء).

"**تاج العروس من جواهر القاموس**": الشيخ محمد مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ). تحقيق مجموعة من الأساتذة. مطبعة حكومة الكويت (خمسة وعشرون مجلداً).

"**التبيين في أنساب القرشيين" الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت 620هـ)**. حققه وعلق عليه الأستاذ محمد نايف الدليميّ. نشر المجمع العلمي العراقي. الطبعة الأولى. سنة 1402هـ (جزء).

"**تتمة الأعلام للزركلي**": محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم . بيروت. الطبعة الثانية 1422هـ.

"**تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية**": د. عمر الملاّ حويش. مطبعة الأمة. العراق. سنة 1392هـ (جزء).

تفسير القرآن العظيم": للحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (ت 774هـ). تحقيق الأساتذة عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا. نشر دار الشعب. القاهرة (ثمانية مجلدات).

"**ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**": النكت في إعجاز القرآن، بيان إعجاز القرآن، الرسالة الشافعية. تحقيق محمد خلف الله ودكتور محمد زغلول سلام. نشر دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة.

"**جامع البيان في تأويل آي القرآن**": الإمام محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ). حققه وعلق حواشيه الأستاذان أحمد ومحمود محمد شاكر.

"**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**": شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت 728هـ). تحقيق وتعليق د. علي بن حسن بن ناصر، ود.عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، و د.حمدان بن محمد الحمدان. نشر دار العاصمة. الرياض. الطبعة الأولى. سنة 1414هـ (ستة مجلدات).

"**جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**": الأستاذ أحمد الهاشمي. نشر دار الفكر. بيروت. سنة 1398ه (مجلد).

"**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**": الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت 852هـ). حققه محمد سيد جاد الحق. نشر دار الكتب الحديثة. القاهرة. سنة 1385هـ (خمسة مجلدات).

"**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**": العلامة أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت 1270هـ). نشر دار الفكر. بيروت. سنة 1403هـ (ثلاثون جزءاً في عشرة مجلدات).

"**سر الفصاحة**": الشيخ محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت 466هـ). نشر دار الكتب العلمية. بيروت. سنة 1402هـ (مجلد).

"**سير أعلام النبلاء**": الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748هـ). تحقيق مجموعة من الأساتذة. نشر مؤسسة الرسالة. بيروت الطبعة الأولى (خمسة وعشرون مجلداً).

"**السيرة النبوية** ": **عبد الملك بن هشام**. تحقيق مجموعة من الأساتذة. نشر مؤسسة علوم القرآن. بيروت.

"**شرح التلخيص**": الشيخ أكمل الدين البابَرتي. تحقيق د. محمد مصطفى صوفيه. نشر المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان. طرابلس. ليبيا. الطبعة الأولى. سنة 1402هـ (جزء).

"**شرح الزرقاني على المواهب اللدنية" وكتاب "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**": للإمام أحمد بن محمد القسطلاني (ت 923هـ). وشرحه للإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت 1122هـ). نشر دار المعرفة. بيروت.

"**الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم**": للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت 544هـ). تحقيق الأستاذ علي محمد البجاويّ. طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة (مجلدان).

"**الصفحات**".

"**طبقات الشافعية الكبرى**": تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت 771هـ). تحقيق الأستاذين عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناجي. نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة (ثمانية مجلدات).

"**الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**": الإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني (ت 745هـ). أشرفت على مراجعته جماعة من العلماء. نشر دار الكتب العلمية. بيروت. سنة 1402هـ (ثلاث مجلدات).

"**الظاهرة القرآنية**": الأستاذ مالك بن نبي (ت 1393هـ). ترجمة عبد الصبور شاهين. نشر دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق. الطبعة الرابعة. سنة 1407هـ (جزء).

"**فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة**": أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي (ت 389هـ) والقاضي عبد الجبار الهمذاني (ت 415هـ)، والحاكم الجشمي = المحسن بن محمد (ت 494هـ). تحقيق فؤاد سيد. نشر الدار التونسية للنشر بتونس والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر. الطبعة الثانية. سنة 1406هـ (جزء).

"**لسان العرب**": العلامة ابن منظور الإفريقي = محمد بن مكرم (ت 711هـ). نشر دار صادر. بيروت (خمسة عشر مجلداً).

"**المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني: نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري**": د. أحمد جمال العمري. نشر مكتبة الخانجي. القاهرة. سنة 1410هـ (جزء).

"**مجموع الفتاوى**": شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت 728هـ) إعداد محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. نشر مكتبة المعارف. المغرب (سبعة وثلاثون مجلداً).

"**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**": القاضي عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي (ت 546هـ). تحقيق المجلس العلمي بفاس. نشر مطابع فضالة. المغرب. الطبعة الثانية. سنة 1403هـ (ستة عشر مجلداً).

"**معترك الأقران**".

"**المعجزة الكبرى: القرآن**": **الشيخ محمد أبو زهرة**. نشر دار الفكر العربي. القاهرة (جزء).

"**معجم الأدباء**": **ياقوت الحموي**. نشر دار الفكر. بيروت. الطبعة الثالثة سنة 1400هـ (عشرون جزءاً في عشرة مجلدات).

"**مقالات الإسلاميين**": للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت 324هـ). عني بتصحيحه هلموت ريتر. نشر فرانز شتاينر. فيسبادن. الطبعة الثالثة. سنة 1400هـ (جزء).

"**مناهل العرفان في علوم القرآن**": الشيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني (ت 1367هـ).

نشر دار إحياء الكتب العلمية العربية. الطبعة الثالثة. القاهرة (مجلدان).

"**منهاج البلغاء وسراج الأدباء**": حازم القرطاجنّي (ت 684هـ). تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة. نشر دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثالثة. سنة 1986م (مجلد).

موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. www.quran-m.com.

"**النبأ العظيم**": الدكتور محمد عبد الله دراز (ت 1377هـ). نشر دار القلم. الكويت. الطبعة الرابعة. سنة 1397هـ.

"**النبوات**": شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت 728هـ). نشر دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية. سنة 1414هـ (مجلد).

"**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذِكر وزيرها الخطيب الدين ابن الخطيب**": الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني (ت 1041هـ). حققه ووضع فهارسه الأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعي. نشر دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى. سنة 1406هـ (أحد عشر مجلداً).

"**النكت في إعجاز القرآن**" مطبوع ضمن مجموع، انظر "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن".

"**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**": الإمام فخر الدين الرازي = محمد بن عمر (ت 606هـ). تحقيق د. أحمد حجازي السقا. نشر المكتب الثقافي للنشر والتوزيع. القاهرة. سنة 1989هـ (جزء).

"**نيل الابتهاج**": أحمد بابا التنبكتي.

"**الوحي المحمدي**": السيد محمد رشيد رضا. نشر مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الثالثة 1406هـ (مجلد).

"**الوافي بالوفيات**": الإمام صلاح الدين خليل بن أَيْبك الصفدي (ت 764هـ). اعتناء س.رينغ. نشر فرانز شتاينر، فيسبادن. الطبعة الثانية (اثنان وعشرون مجلداً).

فهرست الموضوعات